ثانيًا: أفكار بحثية

٨- أنواع الدلالة.

٩- درجات فى سلم البحث

١٠- تكرار النفى فى السياقر القرآنى

١١- الفكر الحديث فى دراسة اللغة

١٢- الفكر الحديث فى النقد

أنواع الدلالة

١ - المعنى العرفى:

اللغة وسيلة حياة فى المجتمع ومن ثم كانت أداة اتصال بين أفراد هذا المجتمع. ثم هى نظام يربط بوسائله المعيَّنة بين ما يقال وما يفهم سواء كان القول سعيًا إلى إظهار المقصود أو إخفائه. وكأنى بإظهار المقصود يبدو ألصق بالتزام الطابع العرفى فى الأداء اللغوى كما يبدو إخفاء القصد ألصق بالوسائل الأسلوبية الفردية. ذلك فيما يبدو طابع كل منهما فإظهار القصد ألصق بالالتزام بالأصل وإخفاؤه ألصق بالعدول عن الأصل. أما مجال كل منهما فإن إظهار القصد يتضح فى لغة العلم والتعليم والشرح والدعاء ونحوها من وسائل الإبلاغ كما يكون إخفاء المقصود مرتبطًا بالمفاوضات السياسية والترويج للسلع والإعلام السياسى ولغة الأدب والمدح والغزل والتعمية والإلغاز وهلم جرا إذ يقوم الأداء على المهارة الفردية والمؤشرات الأسلوبية والسعى إلى غاية تختفى وراء ظاهر النص.

قلنا إن اللغة نظام. ومن شأن النظام أن يقوم على وحدات متكافلة متضافرة فى أداء وظائفها فشأن كل وحدة فى علاقتها مع الأخرى هو كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "مثل المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى". ولهذا التكافل والثبات فى تكوين النظام كان الاطراد من ثوابت النظام بل فى الدرجة العليا بين الثوابت يدعمها ثابتان آخران أحدهما أمن اللبس فى المعنى وثانيهما طلب الخفة فى المبنى. فتبدو العلاقة بين الثوابت الثلاثة على النحو التالى:

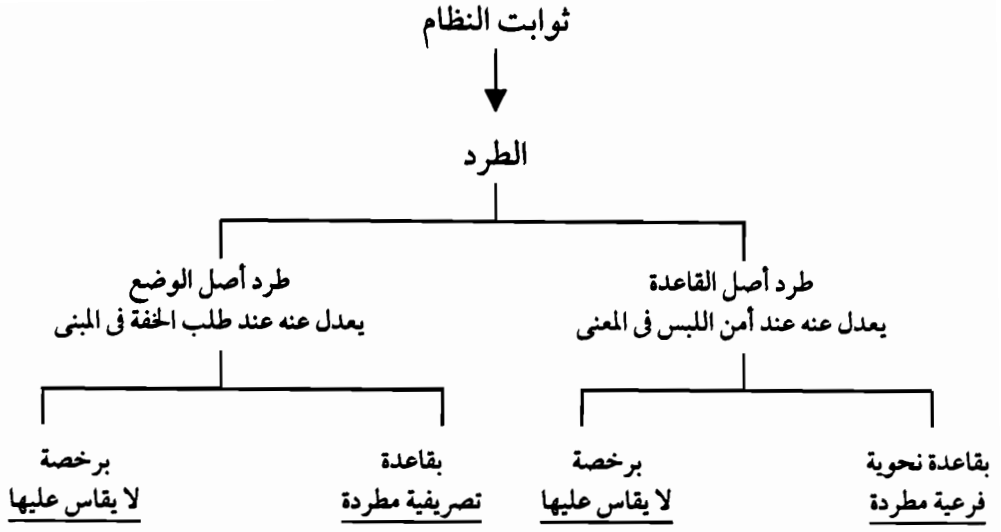

وهكذا نرى إمكان الطرد فى القواعد النحوية الفرعية وفى القواعد التصريفية وذلك عند أمن اللبس فى الحالة الأولى وطلب الخفة فى الحالة الثانية. دعنا إذًا نلق نظرة على أنواع القواعد لترى تحكم مبدأ الطرد فى أصل القاعدة وفرعها وفى أصل الوضع والعدول عنه.

عندما عقد نحاة العربية العزم على استنباط قواعد النحو رأوا أمامهم طريقين لاستقراء ما قالته العرب: الاستقراء التام والاستقراء الناقص. الأول يحصى مقررات المادة المدروسة لا يغادر منها شيئًا ومثاله ما نراه فى التعداد العام للسكان وصور الإحصاء الشامل وإثبات مفردات اللغة فى المعاجم وإحصاء المعرّب والدخيل والحوشى إلخ، والثانى لم يتخذ المفردات غاية له فى ذاتها وإنما يسعى من خلالها إلى رصد سلوكها وأقسامها وتحولاتها وطرق التقائها ودلالات تراكيبها والعلامات الدالة على معانيها العامة فى نطاق هذه التراكيب. ومن المعلوم ما يوصل إليه بواسطة الاستقراء التام فيقال له: "علم غير مضبوط" ومنها ما يوصل إليه بالاستقراء الناقص من خلال اختبار نماذج معينة تكشف عن قواعد السلوك فيسمى: "علمًا مضبوطًا" أو كما يسميه التراث العربى: "صناعة" كصناعة النحو مثلاً.

وأول ما جذب انتباه النحاة العرب ما يطرأ من تغير على المفردات فى بيئة السياق وما يرتبط بهذا التغير من اختلاف فى الوظيفة التى تؤديها الكلمة المفردة. فلقد لاحظوا ما يلى:

١ - ارتباط وظيفة الكلمة فى السياق بما يكون من حركات الإعراب على آخرها.

٢ - وبما تفيده من دلالة على مسمى أو حدث وزمن أو على مجرد علاقة بين عنصرين من دونها كدلالة حرف العطف على علاقة بين المتعاطفين.

٣- أو كون الكلمة على قالب صورى بعينه يمنحها معنى عامًا إذ تدل على فاعل أو مفعول أو مبالغة أو تفضيل إلخ.

٤ - لاحظ النحاة أن بعض الألفاظ لا يستعمل إلا مقترنًا بلفظ آخر وأن ألفاظًا تختص بالدخول على أقسام من الكلم دون غيرها وأن اللفظ المفرد فى السياق من شأنه نحويًا أن يصاحب من هو له معجميًا.

٥ - ولاحظوا أن لأقسام الكلم رتبًا بعضها لا يختلف أبدًا والبعض يجوز أن يتقدم أو يتأخر.

٦ - ووجدوا أن أواصر العلاقة الرابطة بين كلمة وأخرى فى السياق فى تتحقق بعود الضمير ونحوه أى بالمطابقة فى التكلم وفرعيه والإفراد وفرعية وفى التذكير والتأنيث وفى التعريف والتنكير وفى العلاقة الإعرابية.

وهكذا فهم النحاة مما لاحظوه أن للمعنى النحوى قرائن تدل عليه وجعلوا من تحقق القرينة شرطًا للدلالة على المعنى وربطوا بين وجود القرائن وأمن اللبس الذى سبق أن جعلناه أحد الثوابت الثلاثة للنحو العربى منذ قليل.

لم يكن هذا الكشف كافيًا لأن يزعم النحاة لأنفسهم الوصول إلى غايتهم، فلقد كان عليهم أولاً أن يفسروا اختفاء نون الرفع من "لَتُبْلُونَّ" وأن يبرروا اختلاف صيغة المضارع والأمر بين: يضرب ـ يعد ـ يقى واضرب ـ عد ـ ق وأن يشرحوا سبب الخروج عن القاعدة التى تقول إن المبتدأ ينبغى أن يكون معرفة إلخ. تلك

أمور لا يمكن أن يقوم النحو إلا بها ولا يفهم الطرد إلا بعد معرفتها. فكان الوصول إلى هذا التفسير من خلال التجريد وهو إنشاء مفاهيم ليس لها وجود خارجى محسوس ولكنها تؤدى غرضًا لا يتحقق إلا بواسطتها، ومن قبيل التجريد فى زماننا أسماء النظريات العلمية والتجمعات الدولية والعرقية إلخ وقد عوَّدَنا النقاد على قولهم: جرّد الشاعر من نفسه شخصًا وخاطبة.

من الأمور التى جردها النحاة: أصل الوضع وأصل الاشتقاق وأصل القياس وربطوا هذه الأصول الثلاثة بمبدأ عام يسمى "طلب الخفة" أو كما يسميه اللغويون المحدثون: "الاقتصاد فى الجهد" "Economy of effort". ولقد نعلم فى ضوء مفهوم أصل الوضع أن المثال الذى ذكرناه عند إيراد عبارة: "لتبلوُن" له أصل وضع لا ينطق بسبب ثقله فى النطق وذلك هو: "لَتُبْلَوُونَنَّ" ولا غرو أن يكون الثقل هنا داعيًا إلى طلب الخفة للعدول عن الأصل غير المنطوق إلى الفرع المستعمل، وسنرى أن أسباب الثقل هى:

١- توالى ثلاث نونات فى آخر أصل الوضع مع أنَ اللغة العربية تكره توالى الأمثال.

٢- النقاء الساكنين عند حذف نون الرفع.

ومن هنا كان العدول عن الأصل إلى الفرع فى خطوتين:

الأولى: لما اجتمعت النونات الثالث كان لابد من حذف إحداها لطلب الخفة ولما كانت النون المشددة للتوكيد قد جاءت لأداء معنى التوكيد وكان "حذف ما لا معنى له أولى" حذفت نون الرفع المفتوحة وهى أولى النونات الثلاث عندئذ التقى ساكنان أولهما واو الفعل والثانى أول عنصرى النون المشددة للتوكيد.

الثانية: حذفت الواو لوجود الضمة قبلها لتكون دليلاً عليها لأنه "لا حذف إلا بدليل". عندئذ تحول أصل الوضع إلى "لتبلوُنَّ" وهكذا أعاننا أصل الوضع على طرد قاعدة للعدول إلى الفرع المستعمل.

وليس أصل الاشتقاق أقل فائدة من أصل الوضع. وهو كأصل الوضع وثيق الصلة بمبدأ طلب الخفة لأنه يعيننا على تحديد ما لم يظهر من فاء الكلمة أو عينها أو لامها بسبب الإعلال أو الإبدال أو النقل أو القلب أو الحذف. فلو نظرنا إلى فعل الأمر من "وعَى" و"وَقَى" لوجدناه على صورة "عِ" و"قِ" فإذا أردنا معرفة ما حذف من الحروف الثلاثة وما بقى منها لم نجد ما نستعين به إلا أصل الاشتقاق. وسنجد أن طريقة الوصول إلى هذا الأصل هى أن ننظر فى مفردات المادة وما يصيبها من تغير صورها عند الإسناد إلى الضمائر أو عند التثنية والجمع والتصغير وغير ذلك وستجد أن المصدر من "ع" هو "الوعى" فنعلم أن فاء الكلمة واو ولامها ياء. وستجد المصدر من "قِ" هو "الوقَاية" فنعلم أيضًا أن الفاء واو واللام ياء وكذلك نصل إلى هذا بواسطة "وعيت" و"وقيت".

ويختلف الأمر بالنسبة لأصل القياس لأن القياس لا يكون إلا على المستعمل من الكلام فمن أراد القياس على الماضى من فعل "القول" لم يقس على "قَوَلَ" وإنما يقيس على "قال" ومعنى هذا أن الصورة المستعملة من الكلمة لها وجود خارجى بخلاف الصورة المجردة. أى أن المجرد ليس هو اللفظ المقيس عليه وإنما هو مفهوم أصل القياس.

بهذا علمنا أن ثوابت النحو العربى ثلاثة وأن الطرد يقوم من الثابتين الآخرين مقام الأصل مما يجعل العدول عن الطرد بسبب أحدهما هو انتقال من طرد إلى طرد كما سنرى بعد قليل. فمن المعروف أن اللغة وسيلة اتصال بين أفراد المجتمع كما سبق أن ذكرنا وأن غاية الاتصال هى الإبلاغ عن خبر ما أو شرط أو طلب أو إفصاح عن إحساس بعينه يحس به المتكلم. وإذا صرفنا النظر عن المواقف التى يحاول المتكلم فيها أن يخفى مقاصده علمنا أن الوضوح وأمن اللبس هو الغاية التى من أجلها كانت قرائن المعنى النحوى. فإذا قلنا: "ذهب محمد لحال سبيله" عرف السامع أن محمدًا فاعل بواسطة القرائن التالية:

١- أنه اسم وهذا من قبيل قرينة البنية.

٢- أنه مرفوع وذلك من قرينة الإعراب.

٣- تقدمه فعل وذلك قرينة الرتبة.

٤- وهذا الفعل مبنى للمعلوم والقرينة هى البنية مرة أخرى.

٥- أن محمدًا هو الذى فَعَل الذهاب أى أنه أوجد الحدث وهذا هو الإسناد ثم عرفنا أن عبارة: "لحال سبيله" اشتملت على عنصرين مفتقرين إلى ما يصاحبهما فى سياق الكلام أحدهما وهو لام الجر بحسب الأصل لأن اللام لا يكون يغير اسم مجرور يليه وأما الثانى وهو لفظ "حال" فقد جاء افتقاره لا لذاته وإنما لأنه وقع موقع المضاف فكان افتقاره غير متأصل بخلاف افتقار اللام. هذا الافتقار وذاك يعد واحدًا من مظاهر قرينة من قرائن النحو تسمى "التضام". ثم عرفنا بعد ذلك أن الجار والمجرور لا يستقلان بالإفادة وإنما يلزم ارتباطهما بعنصر يدل على الحدث كالفعل أو الوصف أو المصدر وتلك هى قرينة "الربط" وهى أيضًا القرينة الدالة على أن الهاء فى لفظ "سبيله" تعود إلى محمد. وبمثل هذه القرائن يؤمن اللبس فى الكلام.

من هنا كان العدول عن الطرد المطلق عند أمن اللبس عد ولا عن طرد مطلق إلى طرد مشروط إذ تنشأ به قاعدة فرعية لا مبرر لها إلا أمن اللبس. هذه القاعدة الفرعية المشروطة بأمن اللبس تقف جنبًا إلى جنب مع القاعدة الأصلية فى مجال الطرد، لتكون شاهدًا على أن أمن اللبس أيضًا من ثوابت النحو وأنه لهذا السبب يعد مصدرًا من مصادر التقعيد النحوى وإن كانت القواعد التى تنشأ معه قواعد مشروطة به مبنية عليه.

انظر إلى أبيات ابن مالك فى الألفية وما تشتمل عليه من شرط أمن اللبس الذى تنشأ بسببه قاعدة فرعية مطردة:

١- ولا يكـون اسـم زمـان خـبرًا عـن جـثة وإن يفـد فأخـبرا
٢- ولا يجـوز الابـتدا بالنكـرة مـا لم تفـد كعـند زيـد نمـرة
٣- والأصـل فى الأخـبار أن تؤخـرا وجـوزوا الـتقديم إذ لا ضررًا
٤- وشـاع فى ذا الـباب إسـقاط الخبر إذا المـراد مـع سـقوط ظهـر
٥- والحـذف فى نعم الفتاة استحسنوا لأن قـصد الجـنس فـيه بـيّن
٦- ومـا بـإلا أو بـإنما انحـصر أخـر وقـد يـسبق إن قـصد ظهـر
٧- فى بـاب ظـن وأرى المـنع اشـتهر ولا أرى مـنعًا إذا القـصد ظهـر
٨- وحـذف مامـنه تعجـبت استبح إن كـان بعـد الحـذف معـناه يـضح
٩- وإن يقـدم مـسَّعر بـه كفـى كـالعلم نعـم المقتنـى والمقتـضى
١٠- وربـما أسـقطت الهمـزة إن كـان خفًـا المعنـى بحـذفها أُمِـن

وإذا كان أمن اللبس سببًا فى نشوء قواعد فرعية تدور حول المعنى النحوى فإن الثابت الثالث من ثوابت النحو هو طلب الخفة الذى يدعو إلى إنشاء قواعد مطردة يعدل بحسبها عن أصل الوضع إلى قواعد تصريفية مطردة. وهذا الذى عرفه النحاة باسم "طلب الخفة" هو ملخص الذوق العربى فيما يتصل بتوالى الأصوات فى النطق. فلقد وجد النحاة من خلال الاستقراء أن الذوق العربى يكره توالى المثلين والمتقاربين مخرجًا أو صفة كما يكره توالى الأضداد ولكنه يرحب بتوالى الصوتين المختلفين مخرجًا وصفة. ومن قبيل ما ساقه اللغويون فى وصف هذا الذوق ما جاء به السيوطى فى كتابه المزهـر (ص١١٩) من وصفه لرتب الفصاحة إذ جعل المخارج أنواعًا ثلاثة هى الأقصى والأوسط والأدنى ثم رصد احتمالات تواليها فى الكلام حتى جعل أفصح الألفاظ ما توالى فيه الأعلى فالأوسط فالأدنى نحو "عدم".

أما عند النحاة فالأمر أكثر تفصيلاً من هذا لأنهم بتجريدهم لأصل الوضع

استطاعوا أن يرصدوا الطرق المؤدية إلى الخروج من دائرة الثقل وأن يكشفوا عن وسائل اللغة العربية للعدول عن هذا الأصل والوصول بطلب الخفة إلى غايته المقصودة. وهكذا كشفوا عن وسائل منها الإدغام والإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف إلخ. فأدغموا المثلين والمتقاربين لكراهية تواليهما ومنعوا توالى الضّدين (كالصاد والجيم) وأعلّوا الواو والياء فى مواضع معينة وأبدلوا حرفًا من حرف (كإبدال تاء الافتعال طاء بعد حروف التفخيم) ونقلوا أحد أصول اللفظ من موقعه إلى موقع آخر كما فى "جاه" وقلبوا حرفًا إلى حرف كما فى "كساء" و"بناء" وحذفوا حرفًا ما لثقل النطق به كما سبق أن ذكرنا فى شأن الواو من لفظ "لتبلوُنَّ". وأخضعوا كل ذلك لقواعد تصريفية معينة شرطها طلب الخفة كما كان أمن اللبس شرط القواعد الفرعية التى سبق ذكرها. ومن هذه القواعد التصريفية مثلاً:

١- إذا تحركت الواو أو الياء ونفتح ما قبلها قلبتا ألفًا نحو قال وباع.

٢- إذا اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء نحو سيّد وميّت.

٣- إذا وقعت الواو أو الياء طرفًا إثر ألف زائدة قلبتا همزة نحو كساء وبناء إلخ.

ومما رأوه مكروهًا فى ذوق العربية كراهية توالى المتحركات فيما هو كالكلمة الواحدة فالفعل ضَرَبَ مبنى على الفتح وتاء الفاعل مبنية على الضم وقبلها ضاد وراء مفتوحتان فلو بقى كل شىء على حاله لكان الفعل المسند إلى التاء على صورة: ضَرَبَتُ بتوالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة. ومعنى كل هذا أن طلب الخفة ينطبق على مجال المبنى كما انطبق أمن اللبس على مجال المعنى.

هذا الذى سبق هو ملخص التقعيد فى نظام اللغة العربية وإنما لخصنا القول فيه لاتصاله بنوع من المعنى يسمى: "المعنى الوظيفى" فالمعنى النحوى وظيفة الكلمة فى السياق وفيما يلى بيان لأنواع المعانى:

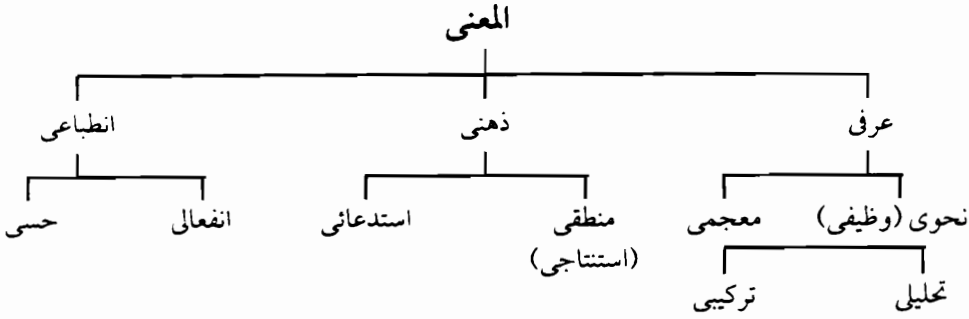

والنوع الآخر من أنواع المعنى العرفى هو المعنى المعجمى والفرق بين النوعين ما يلى:

١- المعنى الوظيفى مدلوله مفهوم عام مجرد كالنفى والاستفهام والفاعلية والتمييز والتوكيد إلخ أما المعنى المعجمى فمدلوله قد يكون مجردًا أو ماديًا محسوسًا نحو كتاب وشجرة وشجاعة.

٢- المعنى الوظيفى ينتمى إلى النحو والمعنى المعجمى ينتمى إلى فقه اللغة (لاحظ الفرق بين مغنى اللبيب والقاموس المحيط).

٣- معنى الحروف والأدوات والتراكيب وظيفى ومعنى المفردات معجمى.

والمقصود بالمعنى التركيبى معنى نوع الجملة كالخبرية والشرطية والإنشائية والطلبية وكذلك أنواع المركبات كالمركب الإضافى والإسنادى والوصفى والعددى إلخ وواضح أن هذا المعنى التركيبى هو وظيفة نحوية شأنه شأن معانى الحروف والأدوات والضمائر إلخ.

والمعنى العرفى بأنواعه الثلاثة يخضع لنوعين من أنواع التحول هما:

١- تعدد المعنى للعنصر العرفى الواحد (وظيفيًا كان أم معجميًا أم تركيبيًا).

٢- معاقبة العنصر للعنصر الآخر فى موقعه مع أدائه لوظيفة العنصر المتروك.

دعنا أولاً نشرحْ المقصود بتعدد المعنى للعنصر الواحد ثم نتكلم بعد ذلك فى

مبدأ المعاقبة أو "النقل" كما يسمونها فى العرفين النحوى والبلاغى. والعنصران معًا من مظاهر الاقتصاد فى اللغة كما سنرى بعد قليل.

نحن نعلم أن الكلم أنواع وأن أول ما سمعنا عنه من خبر نشأة النحو العربى ما نسب إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه من قوله لأبى الأسود: "الكلم اسم وفعل وحرف" ومع أن هذا التقسيم تعرض للنقد فى أزمنة مختلفة نجده ما زال صامدًا للنقد حتى الآن. والفرق بين تعدد المعنى وبين النقل أن تعدد المعنى يعرض للعنصر الواحد وهو ما زال بين أفراد نوعه أما إذا نسب إليه معنى قسم آخر من أقسام الكلم فإنه يقال عندئذ إنه "نقل" إلى وظيفة قسم آخر. ويتعدد المعنى للعنصر الواحد ويتسم بالاحتمال ما دام العنصر مطردًا فإذا وضع العنصر فى السياق قامت القرائن بدورها فى تحديد أحد معانيه. وستضرب أمثلة لذلك بالحروف والأدوات والمفردات المعجمية أما الجمل والتراكيب فإن انتماءها إلى الطابع السياقى يمنعها من تعدد المعنى انظر مثلا "ما" وسترى أنها صالحة للمعانى التالية المحتملة فى حال الإفراد.

النفى: فإذا وضعت فى سياق الجملة زال الاحتمال وتعين المعنى نحو: ما محمد إلا شاعر.

الاستفهام: ويتعين لها بواسطة السياق نحو: ماذا فعل محمد، ما هذا الذى فى يدك؟

التعجب: ويحدده السياق نحو: ما أحسن هذا المنظر.

المصدرية: ويحددها السياق نحو: ودوا ما عنتم.

والظرفية: نحو لن أزورك ما بقى فلان عندك.

الشرط: نحو: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

وتكون كافة: نحو: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾.

وزائدة نحو: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾.

فهذه الوظائف (أو المعانى الوظيفية) تؤديها "ما" عند وضعها فى السياق وتحتملها عند الإفراد. أما تعدد المعنى المعجمى بالنسبة لمفردات المعجم فمثاله ما يلى من تعدد معانى الفعل "ضرب".

١- أوقع الضرب نحو ضرب الأب ابنه.

٢- ذكر نحو ضرب الله مثلا.

٣- حدّد نحو ضرب له موعدًا.

٤- أقام نحو ضرب له قبة.

٥- حسب نحو ضرب ٥ × ٦.

٦- دقّ نحو ضرب الجرس.

٧- ارتبك نحو ضرب أخماسًا فى أسداس.

٨- سعى نحو ضرب فى الأرض.

٩- فرض نحو ضرب عليه ضريبة.

أما الجملة (وهى سياق) فإن معناها لا يتعدد بسبب اشتمالها على قرائن تحدد المعنى ولكننا سنرى بعد قليل أنها صالحة للنقل وهو نوع من العدول عن أصل استعمالها إلى أن توضع موضع عنصر آخر فتؤدى وظيفته فى السياق.

وأول ما نلاحظه من صور النقل أن الأصل فى "ما" مثلا هو الموصولية ولكننا فيما أوردناه لها من المعانى منذ قليل وجدناها تعمل عمل الحروف والأدوات ففهمنا من ذلك أنها نقلت من الموصولية إلى الحرفية فى كل ما أوردناه لها من المعانى منذ قليل. ذلك بأن القسم الذى ينتمى إليه الموصول من أقسام الكلم غير القسم الذى تنتمى إليه الحروف فالنحاة عدّوا الموصولة من الأسماء وعدّوا غيرها من الحروف والأدوات.

والنوع الأخر من النقل هو النقل المعجمى وهو لا يهم النحاة بقدر ما يهم البلاغيين ذلك أن نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر ليس له بحسب الأصل مع وجود علاقة بين المعنيين وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى وذلك هو الذى يسمى "المجاز". والمعروف أن المجاز ينتمى إلى الأسلوب لا إلى العرف ومن هنا كان فرديًا يستقل بطرقه المتبعة فى أدائه والتى لا توصف بأنها قواعد ولا تنسب إلى الاطراد على نحو ما تنسب القواعد.

نصل الآن إلى نقل صورة الجملة من معناها إلى معنى آخر. نحن نعلم أن صورة الجملة فى العربية تقع فى أحد احتمالين: اسمية وفعلية وأن لكل منهما تضامّه ورتبته وصورة ربطه. ونعلم أن أساليب الجمل فى العربية هى كما يلى:

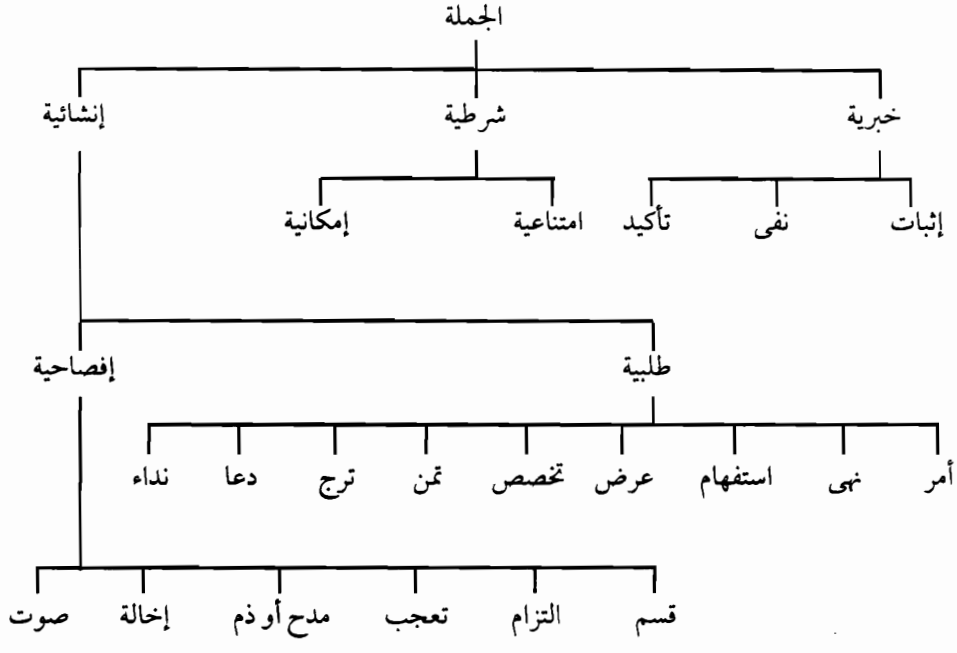

فلو نظرنا إلى تركيب جملة مكونة من مبتدأ وخبر لنسبناه أولاً إلى الجملة الخبرية ولكننا فى الاستعمال اللغوى نجده يستعمل للأمر نحو: "والمطلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثة قروء" والدعاء نحو: "أولئك عليهم لعنة الله" وكذلك

نحو: "رعاك الله" كما يستعمل للدلالة على الشرط كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وكذلك يستعمل للعرض نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ والالتزام كقول الزوج عند العقد "قبلت" وكقول الولى: "زوجتكها" وكقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ويستعمل للتعجب كما فى "إن هذا الشىء عجاب".

أما النمط الخبرى المنفى فينقل إلى الدعاء نحو ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ والنهى نحو ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ كما يمكن خروج النمط الشرطى إلى التعجب نحو ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾. والتمنى نحو: ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ والتسوية نحو: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾. ويستعمل النداء فى التعجب نحو: ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾. والندبة نحو: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾. والاختصاص نحو: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾. والتمنى نحو: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾. وينقل الأمر إلى معنى الشرط نحو: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾. وإلى النهى نحو: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾. وإلى العرض نحو: ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾. والتحدى نحو: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. وينقل النهى إلى الدعاء نحو: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾. الأمر نحو: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. أى تمسكوا بالإسلام حتى الموت كما ينقل النهى أيضًا إلى الشرط نحو: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾. وينقل الاستفهام إلى الإنكار نحو: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾. وإلى التقرير نحو: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾. وإلى النهى نحو: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. وإلى الأمر نحو: ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. بهذا يتبين أن تعدد المعنى والنقل ظاهرتان من ظواهر الاقتصاد اللغوى تعينان على

الوصول بالقليل من الوسائل إلى الكثير من الغابات. بهذا ينتهى الكلام فى المعنى العرفى.

٢ـ المعنى الذهنى:

إذا قلت وأنت طالب فى كلية الحقوق مثلا: "أنا ذاهب إلى الكلية" علم السامعون من أفراد أسرتك أنك ذاهب إلى كلية الحقوق وذلك بحكم العهد الذهنى المشترك بينك وبينهم. وإذا قلت: رأيت اليوم فلانا فى المسجد فى صلاة الجمعة لزم عن ذلك أن فلانًا قدم من السفر بعد أن كان غائبًا. وإذا قال لك أحد الجبناء إنك شديد الحرص على المال فقلت له: ولكننى لست جبانًا فسيعلم من كلامك أنك تعيّره بالجبن بحكم مفهوم المخالفة.

فالعهد الذهنى واللزوم والعكس ونحوها مفاهيم ذهنية غير عرفية فهى تومىء إلى المعنى وتلقى على الذهن عبء الوصول إليه بجهد منطقى غير صورى. فالمنطق إما أن يكون صوريًا يفرض على مقدماته أن توضع فى صور خاصة تصلح معها للوصول إلى نتائج وإما أن يكون غير صورى كالأمثلة التى قدمناها منذ قليل. وإذا أردنا أن نشرح فكرة الصورية فإن أقرب شىء إليها صورية الحساب الذى يفرض على الآحاد أن تكون تحت الآحاد والعشرات تحت العشرات وهكذا ويسمح بأن يشطب من البسط والمقام كميات متساوية.

فالمنطق الصورى يقع فى ترتيب قريب الشبه بذلك كما يبدو فى الصورة التالية:

~~الإنسان~~	حيوان ناطق
محمد	~~إنسان~~
محمد	حيوان ناطق

انظر كيف حكمت الصورة بشطب الإنسان فى مقابل إنسان فبقى بعد الشطب ما صلح أن يكون نتيجة القياس وهى: محمد حيوان ناطق. هذا الترتيب

الصورى لا يصلح للاتصال اللغوى وإنما يصلح فيما يرى المناطقة لنقد صحة ما يقال.

أما فى التعبير اللغوى الحر البرىء من الصورية فأقرب شىء إلى ذلك ما نعرفه فى النحو باسم: " الشرط الامتناعى" كما فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فهذه العبارة يمكن أن يبنى منها قياس شرطى يقول:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

ولكنهما لم تفسدا

إذًا ليس فيهما آلهة إلا الله

جملة القول أن المعنى الذهنى فى الاستعمال اللغوى ليس نتيجة قياس صورى منطقى وإنما هو نتيجة علاقات ذهنية متنوعة تربط المدركات بما يترتب عليها أو بما تستدعيه إلى الذهن.

تصور أن الشرطة علمت بوجود قتيل فى مكان ما فخفّ رجال المباحث الجنائية إلى المكان للكشف عن ظروف وقوع الجريمة ومحاولة معرفة الفاعل. إن أول ما يحرص عليه رجال المباحث فى هذه الحالة أن يحافظوا على إبقاء كل شىء على حالة لعلهم يجدون فيه قرينة ذهنية تدل على بعض حقائق الموقف حتى لو كان هذا الشىء خصلة شعر أو أحد أزرار قميص أو شيئًا لا قيمة له ملقى على الأرض أو نافذة مفتوحة إلخ. فإذا وجدوا شيئًا من ذلك فإما أن يكون وجوده فى رأيهم عرضًا وإما أن يجدوا له دلالة ذهنية على أمر ما ولا يزالون يجمعون الدلالات الذهنية حتى يصلوا بها إلى وصف متكامل لما كانت عليه الظروف عند وقوع الجريمة وعندها يسهل مع التحرى أن يعرفوا شخص القاتل . هذه صورة من صور المعنى الذهنى.

ومن المعانى الذهنية أيضًا ما حدده البلاغيون من علاقات الكناية والمجاز

المرسل فأما الكناية فقد جعلوا علاقتها "اللزوم" فإذا قلت: فلان طويل النجاد" فإن طول النجاد يلزم عنه طول القامة وإلا اضطر فلان هذا أن يجرّ سيقه وراءه فلا تكون العبارة مدحًا وإنما تنقلب إلى سخرية.

وأما علاقات المجاز المرسل فإنها تعود إلى أربع من المقولات العشر هى الإضافة والكم والزمان والمكان وذلك على النحو التالى:

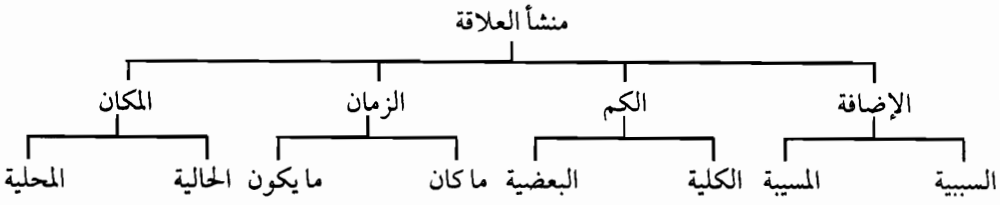

وقد تكون العلاقة الذهنية استدعائية تفرض على المعنى ظلا من ظلاله لم يكن له من قبل فيقال عندئذ إن العبارة أشربت معنى كذا أى أن اللفظ المفرد فى النص قد يتجاوز معناه الذى رصده المعجم له ليصبح له معنى آخر منحه إياه سياق الموقف فالمعروف أن كلمة الوطن مثلا معناها الرقعة التى ولد فيها المرء ونشأ فيها ولو أن قائلاً قال: "وطنى مصر" ما أحس السامع لقوله أكثر من نسبة هذا المتكلم إلى مصر فهذا فى قوّة قوله: "أنا من مصر". ولكن نص بيت شوقى الذى يقول:

وطنـى لـو شـغلت بالخلـد عـنه نازعتنـى إلـيه فى الخلـد نفـسى

بما فيه من مقارنة بين "الوطن" و"الخلد" أعطى الوطن ظلا من المعنى لم يكن له وهو فى صفحات المعجم وإنماجاءه عن طريق الاستدعاء. ومن المعانى الاستدعائية أيضًا المعنى الانعكاسى الذى ينعكس سلبًا على لفظ ما فيصير اللفظ غير مستحب فمن المعروف مثلاً أن لفظ "البيت" لا يسبب حرجًا فلكل منا بيته الذى يألفه ويحبه وقد يردد كل منا بيتًا من الشعر ويتوق إلى زيارة البيت الحرام وأن "الأدب" من أرقى أنواع التعبير اللغوى وأن الإنسان لو نسب إلى "قلة الأدب" لغضب غضبًا شديدًا ولكننا مع هذا لو ضممنا أحد اللفظين إلى الآخر فقلنا "بيت الأدب"

لأصاب العبارة معنى انعكاسى فجعلها غير مستحبة لأن معناها عندئذ هو مكان قضاء الحاجة. ومن المعانى الانعكاسية أيضًا المعنى "البؤرى" الذى يضع اللفظ فى بؤرة الانتباه وهذا شبيه بما يسميه البلاغيون "الاهتمام" الداعى عندهم إلى تقديم اللفظ. انظر مثلا إلى قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ وسترى أن أصل الرتبة: "أتريدون آلهة دون الله إفكا" وهذا استفهام إنكارى فى حالتى التقديم وعدمه غير أن التقديم أعطى لفظى "إفكا" و"آلهة" ظلا من المعنى وضعهما فى بؤرة الاهتمام. وقد يأتى هذا الظل من ظلال المعنى بواسطة أخرى كالتكرار الذى فى الحديث الذى نصه: "من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال النبى عليه الصلاة والسلام: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال: ثم من. قال: "أمك". فأعطى للأم معنى وضعها فى بؤرة الاهتمام.

المعنى الاستدعائى:

يتحقق هذا المعنى فى ظل إدراك حسى أو إشارة إلى أمر غير مذكور فإذا كان الأمر كذلك كان الوصول إلى المعنى بواسطة استدعائه إلى الذهن دون بناء المقصود على نص صريح سابق، وذلك كما نرى فى الشواهد الآتية:

١- السؤال الوارد: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

هنا يرد على ذهن السامع أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه المشرك: "سأستغفر لك ربى" ثم روى القرآن الكريم استغفاره بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ [الشعراء: ٨٦] فعلم السامع بناء على السؤال الوارد أن موقف إبراهيم كان بسبب وعد قطعه على نفسه وأنه لم يصرَّ على هذا الاستغفار.

٢- دلالة الحذف: قال لوط لقومه وقد جاءوا يلتمسون الفسق بضيوفه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ولم يبح بالمقصود الذى فهمه من خطابهم.

٣- اشراب الكلام معنى ملحوظًا: قال تعالى فى شأن عثمان بن عفان وقد تبرع بماله فى سبيل الغزوة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٢] وقال يدعو المؤمنين إلى الإنفاق فى سبيل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فاتصال الفاء بالخبر فى الآية الأخيرة أشرب الكلام معنى الشرط، أى من أنفق فله أجره.

٤- مفهوم المخالفة: قال قوم صالح لصالح: ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ [هود: ٦٢] ففهم صالح أنه لم يعد موضع رجاء فى الوقت الحاضر.

٥- قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ۚ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

٦- قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] ولما كان اليوم يوم حساب يود السامع أن يعرف لماذا تأجل العقاب قال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١].

٧- تحويل معنى الأداة إلى معنى آخر كما فى تحويل معنى «لو» إلى النفى فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾. فالمعنى المراد هو «ما كان لقرآن أن تسير به الجبال أو نقطع به مسافات الأرض أو يكلم به الموتى». ثم إنه لم يعد جواب «لو» مطلوب بعد التحويل إلى النفى وإنما جاء ما يناسب النفى بقوله تعالى: ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾.

درجات سلم البحث فى نظام اللغة

للبحث فى نظام اللغة درجات منتظمة فى رتبة محفوظة لا يمكن تجاهلها، لأن كل درجة منها تبدأ من حيث انتهت سابقتها. غير أن أولى هذه الدرجات (وهى درس الأصوات اللغوية (لا يسبقها إلا إدراك المسموع من الكلام بلغة ما قد يجهلها السامع الذى يريد القيام بمشروع الدرس. فنحن ندرك بالسمع ما لا نعرف معناه من الأصوات فلا ندرى ما يقصده المتكلم بما يقول. وعندما نفهم ما يقال بأى لغة لا يتعلق الفهم بمفردات الأصوات وإنما يتعلق بالجمل ذوات المعانى. ومع ذلك لا نصل إلى هذا الفهم إلا من خلال ما تحمله من دلالات دراسة أنظمة هذه الأصوات بواسطة منهج يتناول ما نسمع بواسطة نظام الأصوات لا من خلال مفردات الأصوات. إن أول خطوة لدراسة نظام لغة ما هى تناول أصوات هذه اللغة بالدرس، ويتطلب ذلك ثلاث وسائل لدراسة أصوات اللغة:

١- الجهاز النطقى، وهو دراسة عضوية تتناول أعضاء النطق للكشف عن المخارج. والصفات وحركات هذا الجهاز.

٢- الجهاز الصوتى بدراسة صوتية تتناول موجات الأصوات التى تنتقل بين المتكلم والسامع تناولاً تركيبيًا. ولكن هناك إجراءات صوتية أخرى تستعمل لأغراض تركيبية، منها مثلا درجة الصوت والجهر والهمس والخفة والثقل والإدغام والإعلال وفروعه والمد والقلقلة.... إلخ.

٣- الجهاز السمعى، بدراسة سمعية تتناول مقدار استعداد الأذن للسماع.

٤ - ولقد وصفت هذه العمليات الثلاث المكونة لمفهوم phonetics بأنها أجهزة لأنها مجموعة أدوات وعمليات تنتهى إلى وسيلة للتفكير فى نظام الصوتيات phonology.

فدراسة الأصوات بوسائلها الثلاث مسخرة فى طلب الوصول إلى تيسير دراسة لنظام الصوتيات ومع كونها تمهيدًا لا بد منه لإنشاء نظام للصوتيات لا يمكن احتسابها واحدًا من أنظمة اللغة ومن الواضح فى الدرس اللغوى أن أكثر الأنواع السابقة أهمية هو النوع الأول (الدراسة العضوية)، ويليها النوع الثانى وأقلها وضوحًا وتطورًا هو النوع الثالث. وقد تمكن الدارسون باستعمال النوعين الأولين من أن يضعوا أصوات اللغة المدروسة فى صورة جدول يوضح مخارج الأصوات وصفاتها ثم يتبينوا من هذا الجدول ومن سماع اللغة وهى فى حالة نطق أن الأصوات المتقاربة المخارج أو الصفات قد تتجاور فى الكلام فيؤدى تجاورها إلى تجاور أصول المخرج أو الصفة. فتتحول صورة الصوت عن أصلها إلى فرع أو أكثر، وبذلك اصطلحوا للدلالة على الأصل لفظ phoneme وللفرع (أو الفروع) لفظ allophone. مثال ذلك فى اللغة العربية ما يلى:

مثال الأصل النون فى أنا

ولعل أوضح ما يمثلها فى نظام اللغة العربية وحدات النظام الإملائى التى يرمز لها برموز وحدات هذا النظام الإملائى.

مثال الفرع (أو الفروع) النون فى ينفع

النون فى ينبغى

النون فى من سعى

النون فى من رأى

النون فى ينجح

النون فى ينظر

النون فى ينكر

النون فى ينقل

هذه هى الخطوة الأولى فى علم الصوتيات (أى فى دراسة نظام من أنظمة اللغة). ويتبين منها أن مخرج الصوت أو صفته عرضة للتأثر بتقلبات الكلام. وأن هذه التقلبات تحكمها مجموعة من العلاقات التى تبدو فى صورة نظام يسمى النظام الصوتى ويدرسه علم يسمى "علم الصوتيات" يسميه قراء القرآن "علم التجويد" ويدرس النحاة بواسطته ما يسمونه: "طلب الخفة".

إن مبدأ طلب الخفة ليس بعيدًا عنما ذكرناه منذ قليل عن فكرة الفونيم وما يتفرع منه من الألوفونات، فلا شك فى أن تحول "ينبغى" إلى "يمبغى" (حيث تنقلب النون إلى ميم تمهيدًا لما يليها من نطق الباء) وما يرد بعد ذلك من أمثلة الألوفونات الأخرى إنما كان لطلب الخفة فى النطق. ولكن مصطلحات طلب الخفة لدى النحاة تختلف عن مصطلح الفونيم والألوفون، فالفونيم عند النحاة يسمى "الأصل" وأما الألوفونات فيقابلها عند النحاة عدد من المصطلحات منها: الإدغام والإعلال والإبدال والقلب والنقل والحذف إلخ، مما يخصص كل ألوفون بما يشير إلى وسيلة إجرائه وما إذا كانت هذه الوسيلة مخرجًا معينًا أو صفة ما. مثال ذلك أن ما حدث فى "يمبغى" إنما هو القلب لأن النون فى الأصل قلبت ميمًا.

هذه الإجراءات التى ترمى إلى طلب الخفة جزء من نظام اللغة، وإن كان الغرض منها أسلوبيًا لا تركيبيًا، ولذلك تعلق طلب الخفة بالزوائد واللواصق ولم يتعلق بحروف المعانى التى تستقل بالدلالة على معان مستقلة. وبيان الأنواع الثلاثة كما يلى:

* الزوائد، ومعظمها يصحب أصول الاشتقاق فى المشتقات كألف فاعل وواو مفعول أى أن لها قيمة صرفية ولكنها لا تستقل بمعنى ما.
* واللواصق أجزاء من مبان صرفية أو نحوية ولها معان تنسب إليها كالتثنية والجمع والمضارعة والمطاوعة إلخ. ولكنها تظل (أى اللواصق) جزءًا من لفظ مفرد.
* حروف المعانى. وهى من أقسام الكلم فتستقل بمعنى وظيفى وتعد من الأدوات ووسائل الربط بين أجزاء النص.

وهناك أمر فى غاية الأهمية لابد من الإشارة إليه عند هذا الحد وذلك أننا لو نسبنا المعنى الذى ترتب على إلحاق أحد النوعين الأولين من الحروف (الزوائد واللواصق) إلى ما ألحق بالصيغة فسوف يكون ذلك من قبيل التوسع، وإنما ينبغى أن ينسب المعنى هنا إلى صيغة الكلمة المفردة كلها وفيها الزائد واللاصق.

* * *

وكما انتفعت الصوتيات بتركة الأصوات انتفع الصرف بتركة الصوتيات فى مجال المبانى الأولى لعلم الصرف وهى الصيغ وتغيراتها، وأن وسائل التغيرات المذكورة إنما هى الزوائد واللواصق. أما القسم الثالث من الحروف (وهو حروف المعانى) فهو من أقسام الكلم، أى أن له وجودًا إفراد يا بوصفه جزءًا لا يتجزأ من أقسام الكلم، وسوف يتضح لنا ذلك عند تناول نظام النحو. والوظيفة الكبرى لعلم الصرف هى "التصريف"، وهو مجموعة من الإجراءات يكشف بواسطتها عن مجموع التحولات التى تتم للانتقال من الأصل إلى الفرع.

ولعل من أهم ما يلفت الانتباه فى نظام الصرف هو أقسام الكلم، وهى أهم ما يقدمه الصرف إلى النحو، ويقدم النظام الصرفى عددًا من الرؤى والدراسات التى يسخرها لإيضاح التقلبات التى تخضع لها هذه الأقسام من حيث أصل الوضع ومن حيث أصل الاشتقاق ومن حيث معانى الصيغ المجردة. ومعظم الوسائل المستعملة

فى كل ذلك مأخوذ مما قدمه نظام الصوتيات لنظام الصرف. فأما من حيث أصل الوضع فإما أن يستصحب الأصل (أى يبقى على حاله) وإما أن يعدل به عن صورته بأحد الإجراءات المأخوذة عن الصوتيات (أى الإدغام والإعلال إلخ)، فإذا كان معدولاً به رد إلى أصله بقاعدة من قواعد الرد. مثال ذلك أن لفظ الفعل "ضرب" مستصحب فلا يحتاج إلى تدخل فى شأنه، أما الفعل "قال" فإن أصل وضعه "قول" بفتحات ثلاث. فقاعدة الرد تقول: (تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا، والقلب (كما رأينا من قبل) عضو فى أسرة طلب الخفة (الإدغام والإعلال إلخ).

ويمكن الوصول إلى معرفة ما إذا كان الأصل مستصحبًا أو معدولاً به عن طريق أصل الاشتقاق. فالمعروف أن الاشتقاق يعترف بأصول ثلاثة للفظ هى فاء الكلمة وعينها ولامها، وأن هذه الأصول تظهر فى مشتقات كل مادة اشتقاق. فإذا أردنا أن نعرف ما إذا كان أحد أصول الكلمة الثلاثة قد عدل به عن أصله، وما الصوت الذى عدل به إليه كان علينا أن نستعرض مشتقات المادة لنجد الأصل الذى أخفاه العدول. فمثلاً بالنسبة للفعل "قال" يمكن أن نجد الدليل على الأصل المنقلب ألفًا عندما يظهر لنا فى بعض مشتقات المادة مثل قول وأقوال وقوال إلخ. عندئذ نقول: "تحركت الواو" فى "قول" وانفتح ما قبلها فقلبت الواو ألفًا فصار اللفظ "قال".

نصل الآن إلى المعانى الصرفية وطبيعتها. المعروف أن للمعنى أقسامًا يختلف كل منها عن غيره فى الفهم على النحو التالى:

* المعنى الوظيفى.
* المعنى المعجمى.
* المعنى الدلالى.

فالمعنى الوظيفى يمتد من مقاصد حروف الزيادة التى تلحق بأقسام الكلم لبيان كل قسم منها كما فى قول ابن مالك:

بالجـــر والتـــنوين والـــندا وال ومـــسند للاســـم تمييـــز حـــصل
بـــتا فعلـــت واتـــت ويـــا افعـــلى ونـــون أقـــبلن فعـــل يـــنجلى

فهذه وظائف تؤديها العلامات والمعنى هنا وظيفى عبر عنه ابن مالك بلفظى: "تمييز" و"فعل". ولا يقصد بها فى البيتين إلا ذلك حتى لو أريد بهما غير ذلك فى سياق آخر. وما يزال المعنى الوظيفى يصعد فى بيان الوظائف حتى يرقى إلى بيان معنى القرائن النحوية ودلالاتها كالتضام والرتبة والربط إلخ. بل إن المعنى الوظيفى يتحقق أحيانًا فى دلالات غير لفظية كما فى قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [الرحمن: ٤١] أى (بعلاماتهم وهى التعفف وعدم الإلحاف فى السؤال) بعد قوله جل شأنه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]. فقد أدى مضمون لفظ "سيماهم" وظيفة المعنى عند عدم الحاجة عن ذكر الذنب.

* * *

وهكذا نصل إلى النظر فى طبيعة النظام النحوى. إن إلقاء نظرة إلى ما سجله كتاب اللغة العربية ـ معناها ومبناها[1] من وصف النظام النحوى للغة العربية يغنينا عن إعادة بذل الجهود فى إعادة المحاولة. وفيما يلى تلخيص لما اشتمل عليه الكتاب المذكور:

ينبنى النظام النحوى للغة العربية الفصحى على الأسس التالية:

١- طائفة من المعانى النحوية العامة التى يسمونها معانى الجمل والأساليب كالخبر والإنشاء إلخ.

٢- مجموعة من المعانى النحوية الخاصة أو معانى الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة إلخ.

---

(١) للمؤلف.

٣- مجموعة من العلاقات التى تربط بين المعانى الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها. وذلك كعلاقة الإسناد والتخصيص (وتحتها فروع) والنسبة (وتحتها فروع) والتبعية (وتحتها فروع) وهذه العلاقات فى الحقيقة قرائن معنوية تدل على معانى الأبواب الخاصة كالفاعلية والمفعولية.

٤- ما يقدمه عِلْما الصوتيات والصرف لعلم النحو من قرائن صوتية أو صرفية كالحركات والحروف ومبانى التفسيم ومبانى التصريف وما اصطلحنا على تسميته مبانى القرائن النحوية.

٥- القيم الخلافية والفروق والمقابلات بين أحد أفراد كل عنصر مما سبق وبين بقية أفراده.

٦- اتخاذ القرائن اللفظية من عطاء الصوتيات أ والصرف أ والقرائن المعنوية من العلاقات النحوية بين عناصر السياق النحوى.

وهكذا وصلنا إلى مجموع ما يشتمل عليه نظام اللغة من وسائل استيعاب المعنى الوظيفى فى اللغة. وأحب أن أشير هنا إلى أن تحقق كل مستويات المعنى الوظيفى لا يعنى أن العبارة التى اشتملت على جميع المعانى الوظيفية قد وصلت إلى مستوى الإفادة. وأن الوصول إلى الإفادة ما زال يتطلب المعنى المعجمى أولا ودلالات السياق ثانيًا. دعنا إذن نقدم ما يدل على افتقاد الإفادة مع وجود أنواع المعانى الوظيفية المختلفة: لقد صنعت كلاما لا معنى له وقد تحقق فى صياغته كل المعانى الوظيفية واوردت هذا الكلام تحت عنوان منهج النحو فى كتابى "مناهج البحث فى اللغة (ص ٢٢٧) ما جعلته دليلاً على صدق ما أقول. فمن شاء فلينتظر هذا الكلام. وهذا هو نص الكلام المقصود:

"حنكف المستعص بسقاحته فى الكمظ فعنذ التران تعنيذا خسيلا فلما اصطقف التران وتحنكف شقله المستعص بحشله فانحكز سحيلا سحيلا حتى خزب".

من مظاهر طلب الخفة هنا ما يلى:

* نطق نون حنكف فى مخرج الكاف التى تليها.

* إدغام المثلين (الصاد المشددة) فى كلمة المستعص وإن كانت أولاهما فى الأصل متحركة.

* قلب تاء الافتعال فى اصطف إلى طاء لمجيئها بعد الصاد.

* اشتمال "انحكز" على نون المطاوعة.

وفيه فوق ذلك كلمات بموازين صرفية وجمل بعلاقات نحوية تجعل من الممكن إعرابه.

وسنعرض هنا ما يشتمل عليه نظام المعجم من مفردات تتوزعها حقول معجمية بين ألفاظ كل منها وبين ألفاظ الآخر إما مناسبة وإما مفارقة. فاللفظ يرد مع من هو له من ألفاظ المعجم ويتنافى مع غير من هو له كما يقول البيانيون وإذا كان اعتماد المعنى الوظيفى على إدراك القصد فإن اعتماد المعنى المعجمى إنما هو على العرف. وقد يتعدد المعنى المعجمى للفظ الواحد فيسمى اللفظ مشتركًا لفظيًا، وقد ينقل معنى اللفظ فيكون استعماله مجازًا. والمعروف أن المعجم تتوزعه حقول للمعنى، وأن علاقة اللفظ باللفظ قد تتسم بالمناسبة المعجمية بين اللفظين كما فى قولك: "السماء فوقنا"، وقد تتسم بالمفارقة المعجمية كما لو قلت: "السماء تحتنا". ففى حال المفارقة إما أن تنتفى الإفادة تمامًا كما فى المثال السابق وإما أن تنبنى الجملة على علاقة وقرينة فيكون الكلام مفيدًا كما فى قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ** ﴾ [البقرة: ١٦]. فمن الواضح أن المقصود هنا هو "الذين استبدلوا الضلالة بالهدى)، وأن بين الشراء والاستبدال وجه شبه وهذه هى العلاقة. ثم إن الضلالة لا تشترى لأنها ليست سلعة ولأن الهدى ليس ثمنًا، فبين هذين اللفظين وبين الفعل "اشتروا" مفارقة معجمية تعتبر هى القرينة على إرادة المجاز. فكانت النتيجة هى قبول العبارة على رغم المفارقة المعجمية. فإن لم تقم قرينة على عدم إرادة المعنى الأصلى (القريب) فتلك هى الكناية كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ** ﴾ [الفرقان: ٧]، فلهذا الكلام

معنى ولازم معنى، والذى يلزم من أكل الطعام هو إفرازه بعد هضمه، كما أن إجراء الصفقات فى الأسواق يقصد به ما فعله النبى ﷺ برحلته فى شأن تجارة السيدة خديجة رضى الله عنها.

هذا ويمكن أن يتحقق الطابع الأسلوبى للكلام وهو عار عن الفائدة فى عمومه مع اتصاف مفرداته بالدلالة المعجمية. وذلك يتضح فيما يلى:

"إن الذى يلمس صوت التاريخ يتسلق صرح الأحداث وما تنطوى عليه منهجيتها المسطحة لابد أن تبهره أحلامها الواقعية وقواعدها الفلسفية التى تمزج فى ملامحها تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ. ذلك بأن الإنسان فى تطوره الفيزيائى من خلال مورفولوجيا الحياة الأسرية كان وما يزال قائمًا بالقسط بين النية والإرادة فى علاقاته مع الآخرين أو فى استنشاقه لمفردات الظواهر. غير أننا إذا نظرنا إلى المد السكونى فى تاريخ الأسرة وفى ضوء الجزر الحركى لفلسفة وجودها علمنا أن لا جديد هناك فى حقل الملاحظة والتجربة. إن ما يشير إليه علم الاجتماع أيضًا من استقامة المحيط وحلزونية القطر ربما أفضى لدى البعض إلى حدس زمكانى الطابع. تلك حالات من تهاويل ضوابط الذاتية فى مقابل التباس الموضوعية. وتلك لعمرك ومضة الومضات الصاخبة فى أفانين الفكر لا يتذوقها إلا ذوو الضمائر المستوفزة وأصحاب المغامرات المحرجة فى دروب الوعى الثقاف ولئن صاح العلماء بنجواهم منشدين الحمد لظواهر الطبيعة التى انكشفت لهم عن مفاتنها فلن ينكر منكر بعد ذلك أن الأحلام من أقصر الطرق إلى ترقيص قواعد العلم" (مقالات فى اللغة والأدب[1]. ٢ ص ٢٤٩).

هنا يرد على الذهن سؤال عن موارد ما تتألف منه هذه الأصول الثلاثة (أصل الوضع وأصل الاشتقاق وأصل الصيغة) وما إذا كانت وسيلة الوصول إلى هذه الأصول هى التجريد أو كانت هى الاستقراء. والجواب عندى أن أصل الوضع

---

(١) للمؤلف.

يأتى عن طريق النجريد ولكن أصل الاشتقاق وأصل الصيغة يأتيان عن طريق الاستقراء من خلال مبانى التصريف. ولقد سبق أن ذكرنا أن طلب الخفة قضية أسلوبية ونضيف هنا أن طلب الخفة لا يرقى فى الأهمية إلى مستوى التركيب عند تعارض التركيب والأسلوب، إذ يكون التركيب عندئذ أولى بالرد إلى الأصل من طلب الخفة كما فى قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. إذ كان إظهار اللام الساكنة فى "بل" أولى من إدغامها فى الراء المتحركة فى "ران" لأن المنطوق عندئذ سيكون "بران" بتشديد الراء. أما إذا لم يرد مثل هذا الاحتمال فإن اللام تدغم فى الراء بحسب طلب الخفة كما فى قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف: ٢٣] بإدغام لام "قل" فى راء "ربى" طلبًا للخفة.

ونريد الآن أن نتناول مفهوم المعنى الدلالى للوصول إلى نظرة فى سياق النص. ولقد سبق أن قلنا إن وظائف اللغة لا تتحقق فى المجتمع إلا بواسطة الإفادة. فالإفادة هى الغاية التى لا يستغنى عنها فى الاتصال اللغوى. ولقد رأينا كيف يمكن للمعنى الوظيفى أن يتحقق على مستوى الصوتيات وعلى مستوى الصرف وعلى مستوى النحو ومفردات المعجم، وأنها (أى الإفادة) لا تتحقق إلا من خلال المعنى الدلالى وهو قمة المعانى. وكان تعريف الكلام فى تراثنا العربى بأنه "اللفظ المفيد" يدل بصفة عامة على أمور منها أنه يحول بين الإشارة الحسية ونحوها وبين أن تعد من قبيل الكلام. وعلى أن لفظ "المفيد" يحول بين الإشارة ونحوها وبين أن تعد من قبيل الإفادة فى الاتصال. من هنا كان المعنى الوظيفى والمعنى المعجمى من قبيل الوسائل وكان المعنى الدلالى من قبيل الغايات والنتائج.

ولعل من أهم الأمور فى تحقيق الإفادة قرينتين كبريين هما: سياق النص وسيق الموقف ومن غير المناسب أن أطيل فى شرح كل من هاتين القرينتين. ومن ثم أرى أنه حسبى أن أقدم شاهدًا واحد على كل منهما:

سيلق النص: مبدأ التناص. (نص يشرح نصًا)

يقول الله تعالى فى سورة هود: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [٤٢ ـ ٤٦].

فى هذه الآيات ما يحتاج إلى فهم مثل:

١ - ما معنى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾؟

٢ - وما معنى ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾؟

٣- وما معنى ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾؟

لمعرفة هذه المعانى يلزم الرجوع إلى آية من سورة التحريم تقول: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [١٠].

أيلزمنى أن أشرح هذا الكلام الواضح؟ لا أعتقد ذلك.

٢ـ سياق الموقف:

دعا النبى ﷺ ربه بعد وفاة عمه أبى طالب أن يرحم عمه فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]. اتسم الموقف بالمقارنة

التى أدت إلى سؤال وارد يقول: فلماذا دعا إبراهيم ربه بقوله: "واغفر لأبى" وكان أبوه مشركًا فجاء الجواب الشارح فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤]. والمقصود بالموعدة قول إبراهيم لأبيه: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] فهنا أيضًا موقفان يشرح كل منهما موقفًا آخر، فتتحقق الإفادة: الأول موقف الموعدة وقد أبان عن سبب الاستغفار، والثانى أن إبراهيم تبين أن أباه عدو لله فتبرأ منه. وجملة الفائدة من الأمرين أن استغفار إبراهيم لأبيه لا يبرر استغفار النبى ﷺ لعمه أبى طالب.

والله ولي التوفيق.

تكرار النفى فى السياق القرآنى

لعل أشهر أدوات النفى فى اللغة العربية هما "ما" و"لا"، ويمكن لكل منهما أن يرد فى سياق الجملة مكررًا أو غير مكرر. مثال ذلك ما يلى:

١- ما جاء زيد وما طلعت الشمس.

٢- ما زارنا زيد ولا أسعدنا برويته.

٣- هذا سر لا نعلمه نحن ولا أنت.

٤- لا رجل فى الدار ولا امرأة.

يلاحظ فى المثال الأول أن "ما: تكررت فنفت جملتين إحداهما جملة (جاء زيد) والأخرى (طلعت الشمس). ومن الواضح أن كلا من الجملتين قائمة بذاتها من الناحية النحوية لعدم وجود علاقة فى السياق بين زيد وبين الشمس. غير أنه يمكن أن تترابط الجملتان إذا كان زيد قد وعد المتكلم بالمجىء عند طلوع الشمس، وأن المتكلم نطق بهذا النص قبل طلوع الشمس ليجيب سؤالا يستفهم عن قدوم زيد.

ودليل المعنى فى هذه الحالة يأتى من سياق الموقف لا من النحو.

أما فى المثال الثانى فهناك علاقة واضحة بين حضور زيد للزيارة وبين رؤيته عند الحضور. فلا يمكن أن تتحقق الرؤية إلا عند الحضور. ومن ثم جاء النفى الثانى بواسطة "لا" دون "ما" ليفيد كون النفى الثانى يترتب على النفى الأول. يحكم علاقة السبب بالمسبب.

وفى المثال الثالث يتكرر نفى العلم بالذكر أولاً وبالتقدير ثانيًا أى (لا نعلمه نحن ولا تعلمه أنت) ومن ثم يبدو الكلام وكأن المنفى به لفظان مفردان هما "نحن" و"أنت". وهكذا تختلف بنية الكلام هنا عما مر بنا فى المثالين السابقين. حتى ليمكن أن يقال إن النفى هنا إفرادى لا تركيبى.

أما فى المثال الأخير فإن "لا" نافية للجنس، ومدخولها مفرد فى اللفظ عام فى المعنى. أما النفى بها فمنصب على الجملة الاسمية التى هو فيها دعنا بعد هذه المقدمة نلق نظرة على شواهد من النص القرآنى تشتمل على هذه الأنواع من النفى للتعبير عن المعانى المذكورة منذ قليل، وما يحمله كل شاهد منها من مقاصد النفى الملفوظة والملحوظة، ثم ما يحمله السياق من قرينة تدل على المعنى المذكور. هذا مع العلم بأن الكشف عن دلالات النفى بهاتين الأداتين يعتمد على اجتماعهما وافتراقهما فى الجملة كما يعتمد على طبيعة العلاقة بين طرفى النفى بحيث تكون هذه العلاقة هى التغاير أو العكس أو الترابط أو التضاد، وذلك على النحو التالى:

ما + ما:

١ - شواهد نفى المغاير:

*** الربح والهداية:**

قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

*** السعى للكفالة ومباشرة الخصام:**

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

*** الكتابى والمشرك:**

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

* البشرى بالنصر وتحقيق النصر:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

* الضعف والخضوع:

﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

* الموت والقتل:

﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

* الإهمال والحرمان:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

* الإضلال والضرر:

﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ [النساء: ١١٣].

* القتل والصلب:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

* الإشراك والإشراف:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

* الأب والأم:

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨].

* صمت الخضوع وصوت الاستغاثة:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

* الاستحقاق والإمهال:

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨].

* التابع والند:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ب: نفى العكس:

* قبلتهم وقبلة بعضهم:

﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

* حسابهم وحسابك:

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

* مصرخكم ومصرخى:

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

* السبق والتأخر:

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٣].

ج: الجمع بين ما ولا فى نفى المترابطين:

* التلاوة والدراية:

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦].

* التلاوة ومطلق العمل:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

* خلق السموات وخلق الناس:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١].

* العبادة والتحريم:

﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٣٥].

* التلاوة والكتابة:

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

* التحريم والإبدال:

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

* إيذاء الشخص والزواج بأرملته:

* لا هؤلاء ولا أولئك:

د: النفي بلا ولا:

﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

* الضر والنفع:

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٤٩].

* لا هذا ولا ذاك:

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣١].

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة].

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون ٢ ـ ٣].

الخلاصة:

١ - تكرار النفى بما يدل على استقلال كل من المعنيين عن الآخر.

٢ - فإذا جاء النفى بما ثم بلا دلّ ذلك على أن النفى الثانى من شأنه أن يتحقق بعد الأول.

٣- أما تكرار "لا" للنفى فيجعل الجملتين مترابطتين يجمعهما نفى واحد أو شبه واحد.

اللغة لفظ ومعنى، ولكل من اللفظ والمعنى نموه وتطوره، على نحو تراكمى حينًا وعلى نحو تجددى حينًا آخر عبر توالى الأزمنة. ولقد كان الإنسان مصدرًا لهذا التراكم وذلك التجدد، وكان من طبيعة علاقة ذلك باللغة أن يصيب اللغة فى كل العصور سواء من حيث اللفظ أو من حيث المعنى قدر من التغير إيجابًا أو سلبًا. وكان الفكر الجديد فى الحالين إما أثرًا من آثار التحول التراثى الذاتى، وإما غاية من غايات التفكير الإنسانى. إذ إن هذا التفكير هو مصدر الفكر اللغوى الجديد، وهو موضوع هذا البحث، ومن المقبول طبعًا أن يكون الفكر اللغوى المقصود بما نقوله هنا منصبًا فى معظمه على تاريخ اللغة العربية لا ينحرف عنه إلا لسبب يدعو إلى الانحراف على نحو ما نراه فى تناول بعض الظروف التى سيأتى ذكرها فى موضوع هذا الفكر اللغوى الجديد.

دعنا نحدد نقطة التحول من القديم إلى الجديد فى الفكر اللغوى العربى بما كان من عودة المبعوثين الذين أرسلهم محمد على باشا إلى باريس أثناء استقلاله بحكم مصر، وما كان لهؤلاء المبعوثين من أثر فى نقل بعض صور النشاط العلمى والفنى إلى مصر، ثم ما كان لذلك من أثر فى ترجمة العلوم إلى العربية، وفى ارتجال الفكر على حد سواء. كانت تركة التراث عند هذا الحد تتمثل فى الثروة التى يحافظ عليها الأزهر الشريف من مأثور العلوم الإنسانية والدينية، ولهذا ستكون طريقة العرض فى هذا البحث انتقالاً مكررًا من وصف الظاهرة اللغوية كما كانت جزءًا

من التفكير التراثى، إلى وصفها بعد أن أصابها قدر من التحول إلى فكر لغوى جديد.

دلالة الصوت اللغوى:

ليس للصوت اللغوى فى ذاته دلالة، فلا يقال مثلاً إن معنى القاف يثير فى النفس معنى الشجاعة والعزة، ويختلف عن مدلول الكاف. غير أن الصوت اللغوى قد يسخر فى العرف اللغوى للدلالة على مفهوم فى علم الصرف يعبر عن وظيفة فى موقع ما، كحروف المضارعة وواو الجماعة وغيرها من اللواصق. أو على مفهوم فى علم النحو للدلالة. على علاقة رابطة بين عناصر السياق كحروف العطف أو الاستثناء أو أدوات الجمل.. ولم يفرق النحويون من السلف بين وظيفة اللواصق وعلاقة الروابط كما نفرق نحن الآن بينهما فى الفكر اللغوى الجديد، إذ نرى فى الإلصاق دليلاً على الوظيفة الصرفية ونرى فى التعليق وسيلة للربط النحوى بين عناصر السياق.

ورث الأزهر هذا التراث على نحو معيارى لا يسمح إلا نادرًا بتغير الدلالة، ولا يأذن بتغير معنى الحرف إلا فى حالات خاصة مثل استعمال واو الجماعة لتعظيم الفرد المخاطب (إلا أن يكون المخاطب هو لفظ الجلالة)، أو أن تستعمل الكاف للدلالة على السببية كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾. أما فى الفكر الجديد فقد كشف العلم عن وظائف للأصوات مفردة كانت أم مركبة، ولم يكن لهذه الوظائف موضع فى أفكار السلف، وبخاصة إذا كان الصوت أو كانت الأداة عرضة لتعدد احتمالات المعنى أو للنقل بحسب الأسلوب، كما يلى من قوله سبحانه:

* ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس: ٣٥]. يمكن أن تكون "ما" موصولة أى من الذى عملته أيديهم أو "نافية" أى ولم تعمله أيديهم. غير أن فى الآية

قرينة على إرادة النفى هى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ فالمرء إن أعد طعامه بنفسه فلا يشكر نفسه على ما قدم لنفسه، ويشبه ذلك ما فى الآية التاسعة والستين من سورة يس أيضًا وهى كما يلى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ إذ يمكن للضمير فى "له" أن يعود على النبى ﷺ أو على الشعر. ولكن المعنى واضح، ولولا وضوح المعنى للزم أن يقال: ، فيعود الضمير على النبى فقط، لأن ما ينبغى لتعلم الشعر هو علم العروض، ولم يكن هذا العلم معروفًا عند نزول القرآن.

أو ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ١ ـ ٢] أى لكن تذكرة لمن يخشى. فليس القرآن وسيلة لفرض الشقاء على النبى، ولكنه وسيلة للتذكير بتقوى الله، أو ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ [مريم: ٦٣] أى لكن سلاما.

أو ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] بضم الهاء من "عليه" وذلك للحفاظ على تفخيم اللام من لفظ الجلالة. أما قوله: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ [الكهف: ٦٣] فهو دليل الارتباك والاعتذار. ولذلك جاء تفسير الهاء بقوله ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ وهو يقصد أن أحضره.

أو ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٦] تحولت الدال من لفظ "دحاها" فى قوله جل شأنه "والأرض بعد ذلك دحاها" إلى طاء مفخمة لتأكيد القسم بواسطة التفخيم.

وربما خلا موقع الحرف فى السياق فقيل إن الحرف محذوف فى هذا الموقع. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]. فالحرف المحذوف فى أحد الموضعين أو كليهما هو الفاء، فإما أن نقدر الفاء قبل "قلت" وإما أن نقدرها قبل "تولوا" أو أن نقدرها فى الموضعين كليهما، ولم تسبق

الإشارة إلى تعدد هذه الاحتمالات فيما أعلم. ومن قواعد الحذف أيضًا أن الفعل الذى يتعدى إلى مفعول به إذا دل بلفظه على مفعوله فإن هذا المفعول يصلح للحذف كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣]. وقوله جل شأنه: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ (أى القطيع) وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (أى القطيع أيضًا) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى (الغنم) حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ (أغنامهم) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا (أى القطيع)﴾ [القصص ٢٣ ـ ٢٤]. وما كان للفكر اللغوى الجديد أن يرفض هذه الأقوال التى ورثها عن السلف ولم يكن فيها ما يحول دون قبولها ودون صدقها.

الصيغة الصرفية:

ننتقل الآن إلى التعرض لتطور الفكر اللغوى فى فهم تقلبات الصيغة الصرفية والميزان الصرفى فى اللغة العربية كما عرفها السلف. ثم ما رآه فيها المحدثون أصحاب الفكر اللغوى الجديد. من المتبع فى البحث اللغوى أن اتجاه حركة الملاحظة فى تأمل الاستقراء الصرفى يختلف عن اتجاه نظيره النحوى، ومن ثم تكون العلاقة بينهما هى التقاطع، بمعنى أن الانتقال من صيغة صرفية إلى ما يليها فى مجموعتها فى الاشتقاق أو فى التصريف إنما يكون (رأسيًا) من أعلى إلى أسفل كما يلى:

أنا	أضرب
نحن	نضرب
أنت	تضرب (أنت بفتح التاء)
أنت	تضربين (أنت بكسر التاء)
أنتما	تضربان
أنتم	تضربون.... إلخ.

مما يمتنع فيه أن يوضع فى صورة سياق أفقى. وأن الانتقال من لفظ من ألفاظ الجملة النحوية إلى ما يصاحبه إنما يكون من اليمين إلى الشمال (أفقيًا) نحو: "أنت تضرب أخماسًا فى أسداس". أى أن النظرة الصرفية موقعية وأن النظرة النحوية سياقية، وأن العلاج الصرفى تصريفى والعلاج النحوى علائقى، لقد ألم النحاة العرب بذلك بتطبيقه ولم يتكلموا فى شأنه من الناحية النظرية. وظل هذا الأمر مسكوتًا عنه حتى تعلمناه فى الغرب تحت عنوانين هما: synchronic أى أفقى علائقى وdiachronic أى رأسى موقعى. فانتبهنا للفرق المهم بين الأمرين. ولاحظنا صدقهما فى نظام اللغة العربية.

وضع السلف للأسماء والصفات والأفعال (وهى المعروفة بالمشتقات) صورًا أصلية يسمى كل منها "أصل الوضع" يمكن أن يعدل عنها وأن يرد إلى صورتها الأصلية تبعًا لقواعد صاغها النحاة. وتتم كل درجة من درجات العدول بحسب قاعدة خاصة، فإذا تم الوصول إلى آخر الدرجات سميت النتيجة وزنا للكلمة أو زنتها. أما صور العملية من أولها إلى آخرها فتعرف بلفظ "صيغة". وهناك أيضًا أصل الاشتقاق وأصوله ثلاثة تسمى فاء الكلمة وعينها ولامها وقد تضاف إليها زوائد من الحروف يجمعها قولك "سألتمونيها". هذا ما استقل به النحاة وأصبح فكرًا لغويًا تقليديًا قديمًا. ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً كما يلى فى تصريف الفعل "لتبلون".

اللفظ: لتبلوونن (بضم الواو ومدها وفتح نون الرفع وتشديد نون التوكيد المشددة).

* تحذف نون الرفع لكراهية توالى الأمثال (طبقًا للقاعدة).
* يلتقى عندئذ ساكنان هما واو المد والعنصر الأول من نون التوكيد المشددة.
* تحذف واو المد بسبب التقاء الساكنين (طبقًا للقاعدة أيضًا) وتبقى الضمة على الواو بعد حذف المد.

* النتيجة: لتبلون بضم الواو وتشديد النون.

أصر الفكر اللغوى القديم على أن حروف الزيادة يجمعها قولك "سألتمونيها" ولم يعترف بظاهرة أخرى تأذن لكل حرف من حروف العربية أن يقع موقع الزوائد فى الصيغ الصرفية. ولقد سبق لى أن نبهت القارئ لكتابى "مناهج البحث فى اللغة" (١٩٥٥) ص ٢١٧ تحت عنوان "وسائل خلق الرباعى" إلى هذا الأمر وأوردت من أنواع الزيادة عددًا من الأنماط المختلفة للزيادة منها المضعف وأنماطًا أخرى من الرباعى أيضًا حيث تظهر الزيادة فيها فى مواقع الأصول الثلاثة. فالمضعف نحو:

لفلف	نخنخ	فتفت
بصبص	رجرج	لملم
شمشم	كشكش	حكحك
حفحف		

وأمثلة أخرى غيرها. وأما الزيادة فى مواقع الأصول الثلاثة فكما يلى:

دحرج (بزيادة الحاء) بعثر (بزيادة العين)

سقلب (بزيادة السين) عربد (بزيادة الباء)

(لاحظ: والحرب فيها وتر عردّ)

زغرد (بزيادة الزاى)

هذا الاتجاه جزء من فكر جديد.

مفردات المعجم:

نصل بعد ما سبق إلى المفردات المعجمية، وهى تمثل ثلاثة أنواع من أقسام الكلم هى الأسماء والصفات والأفعال، ومن علاقات هذه الأنواع بعضها ببعض ينشأ نظام المعجم الذى تحكمه المناسبة والمفارقة بين المعانى. والملاحظ فى كل قسم من هذه الأقسام أن بين كل لفظ من ألفاظه وألفاظ الأقسام الأخرى إما مناسبة

معجمية تسمح بورودهما معًا. وإما مفارقة معجمية تحول دون وجود علاقة نحوية بينهما فى الكلام. هذه المناسبة وتلك المفارقة كانتا موضع تفكير من النحاة والبلاغيين على حد سواء. ظهر ذلك النوع فى الفكر النحوى فى عبارات مأثورة كقولهم: "لا يضاف الشىء إلى ما فى معناه، ولا يخبر عن الشىء بلفظه" ولدى البلاغيين فى عبارات من قبيل قولهم: "إسناد اللفظ إلى من هو له" أو "إسناد اللفظ إلى غير من هو له". كما كان لغير هؤلاء وأولئك من السلف شعارات تشبه ذلك وتظل عامة غير مفصلة مثل قول المفسرين: "القرآن يفسر بعض بعضا" وكلام النقاد عن "ظلال المعانى" ونحو ذلك. وكان من نتائج هذا العموم فى دلالة هذه العبارات ندرة تطبيق هذه الشعارات القيمة (انظر تفسير الشنقيطى المسمى أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن مثلاً) ولم يأت التطبيق إلا فى أساليب علم البيان التى تبنى هذه المفاهيم على مبدأ نقل المعنى. فكان لا مفر من انتظار أن يجود الزمان بمن يعثر لهذه المبادئ على التطبيق الأمين.

ولم يبخل الزمان بظهور أجيال هنا وهناك فى أرض الله الواسعة لتعمل على تطبيق هذه الأفكار القيمة، إما فى حقل الاستعمال وإما فى حقل التنظير. فمن قبيل الاستعمال أن يظهر الفكر الجديد فى تطوير طرق الاتصال بواسطة اللغة من الشافهة إلى مختلف الوسائل الأخرى، ومن قبيل التنظير القول بأن رفض الإخبار عن الشىء بلفظه لا يحول دون التأويل ودون تطبيقه على تراكيب مثل قولنا: الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان، فنرى أن العبارة توحى بمعنى سليم. فالمبتدأ فى العبارة إقليم جغرافى والخبر عادات وتقاليد، أى أن الإخبار هنا لم يكن بذات المبتدأ عن ذاته.

وأما الشعار العظيم الذى يقول إن القرآن يفسر بعضه بعضا فإن معناه أوسع مما يشير إليه لفظه، فهو يصدق على النصوص بكل صورها، فلقد كانت نشأة علم لغة

النص بما يشتمل عليه من معايير نصية منها القصد والقبول والإعلامية والتناص نعمة انعم الله بها على أفهام البشر، وبخاصة مبدأ معيار السياقين: سياق النص وسياق الموقف، وإذا أذن لى السادة العلماء السامعون أن أسوق بعض الشواهد التى تدل على صدق ما أقوله فإنى سأورد الشواهد المذكورة من القرآن الكريم، لا لأطعن فى موقف المفسرين الذين اجتهدوا قدر طاقتهم حتى وصلوا إلى ما أتاحه لهم عصرهم، ولكن لأبين أن القرآن الكريم ما يزال يتطلب المزيد من الفهم ومن الفكر اللغوى الجديد، وفيما يلى بعض الشواهد:

* قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٨].

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ تكريم ليوسف، من خلال تجاهل علاقة تبعيته لها، وامتهان لها لأنه لم يقل "سيدته. قوله: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ يقصد "سيدى" أى العزيز، والدليل أن العزيز قال لامرأته: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وأن يوسف استشهد بذلك عندما دعى لمقابلة الملك، وذلك بقوله عن العزيز: "إن ربى بكيدهن عليم".

قوله ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ أى أحس بوجود سيده العزيز أمام البيت حتى إنهما وجداه عند نهاية استباق الباب بدليل "وألفيا سيدها لدى الباب".

قوله ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو تحريض للعزيز ضد يوسف وتبرئة لنفسها.

قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ هو العزيز وكانت شهادته فى صورة تفكير صامت وسير وتقسيم على نحو ما رأينا من قوله: "إن كان قميصه قد... إلخ".

* والشاهد الآخر من سورة القصص، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾.

لفظ "تصطلون" يدل على أن الرحلة كانت فى الشتاء، لأن الناس لا يصطلون فى الصيف ولم يذكر أحد من السلف هذه الملاحظة فيما أعلم.

* والشاهد الثالث يجمع بين سورتى هود والتحريم.

يقول الله تعالى فى سورة هود [٤٢ ـ ٤٨] ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

* وقال فى سورة التحريم ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [١٠]: . انظر إلى دلالة الألفاظ الآتية وحاول أن تستخلص المعنى (أو على الأصح: ظل المعنى) مما يلى:

* فخانتاهما. (ما المقصود بالخيانة؟).

* ليس من أهلك. (ما معنى هذا؟).

* إنه عمل غير صالح. (وما المقصود بذلك؟).

* فلا تسألن ما ليس لك به علم. (ما الذى يجهله نوح؟).

* إنى أعظك أن تكون من الجاهلين. (ما معنى هذا التحذير؟).

يبدو أن نوحا لم يكن يعلم بمحتوى قوله تعالى: فخانتاهما حتى أخبره الله سبحانه بما ورد فى سورة هود من المصارحات التى لم يكن لنوح علم بها".

ومن ذلك أيضًا مثالان آخران لاختيار اللفظ المناسب والعزوف عن استعمال غيره الذى ورد فى سياق آخر مماثل كما يلى:

* ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

* ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٢١].

لاحظ أن الإملاق فى الآية الأولى واقع فعلا على الآباء، ومن ثم وعدهم الله بالرزق لهم لا لأبنائهم، وأن حدوث الإملاق لا يتحقق إلا ببلوغ الأبناء الصغار كما يفهم من الآية الثانية فجاء الوعد برزق الأبناء بعد بلوغهم.

السياق الثانى: قوله تعالى:

* ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

* ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ

مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

لاحظ هنا كيف كان العمل المنسوب إلى لفظ الجلالة من قبيل الفعل فى حق الرجل ومن قبيل الخلق فى حق المرأة بسبب المناسبة المعجمية فى اختيار اللفظ. هذا النوع من الملاحظات ينتمى إلى الفكر اللغوى الجديد.

ومن ذلك أن تتوالى الجملتان أولاهما عامة المعنى والأخرى مفسرة لها كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أى وأحرص على الحياة من الذين أشركوا. ثم يأتى تفسير هذا الحرص بقوله جل شأنه: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. فليس المراد أن الحرص بسبب الجبن.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فما بعد لفظ "الصمد" تفسير لمعناه.

ولقد سبق أن ذكرنا أن من الفكر اللغوى ما ردده علماء السلف على صورته المجملة ولم يحاولوا أن يمنحوه دراسة مفصلة إلا فى بعض ظواهر علم البيان عندما تكلموا عن ظاهرة النقل ووجه الشبه ولازم المعنى ونحو ذلك مما تقدم به علماء أصول النحو ونقاد الشعر فى هذا المجال. أما الجديد فى دراسة الفكر اللغوى فهو البناء على ما تركه الأقدمون وتوسيع الأفق فى هذا المجال على نحو ما نسوق لذلك من عدد من الشواهد. ومن هذه الشواهد ما يلى من أنواع الظلال:

١ - السؤال الوارد:

قال تعالى فى شأن يوم الحساب: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

السؤال هو: كيف ذلك واليوم يوم حساب؟ وهذا هو ظل المعنى وهو يتطلب الإجابة.

والجواب هو ما يأتى بعد ذلك مباشرة من قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾. وحين ورد هذا المعنى مرة أخرى فى سورة القصص (٧٨) بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾: اشتملت إحدى الآيتين على تفسير الأخرى بطريق التناص.

٢- ظل الاستفهام الإنكارى جملة مثبتة:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾؟

أى لقد وجدك يتيمًا فآوى.

٣- مدلول المخالفة:

قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ [هود: ٦٢].

أى لم تعد مرجوا كما كنت.

٤- دلالة الحذف:

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣] حذف لفظ "أفعل" من ﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ والعبارة للتعجب بدليل ما بعدها من قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ أى وما أعظم درايتك بها بحكم ما جاءك فى شأنها من الوحى وما بلغنك من أشراطها. ثم إن فى الحديث الشريف ما يشبه ذلك الحذف كما فى حديث أم زرع إذ تقول: "زوجى أبوزرع وما أبو زرع".

٥- قد يكون التعجب ظلا للاستفهام:

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢].

أى ما أشد ما كان عقابى!

٦- قد يكون الشرط ظلا للخبر:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[البقرة: ٢٧٤].

هذه جملة خبرية أشربت معنى الشرط فاقترن خبرها بالفاء، أى أن الشرط هنا من ظلال المعنى.

٧- قد يكون الأمر ظلا للخبر:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[البقرة: ٢٢٨].

أى على المطلقات أن يتربصن.

٨- قد يكون الدعاء ظلا للخبر:

﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[البقرة: ١٠].

أى اللهم زدهم مرضا!

٩- قد يكون العرض ظلا للخبر:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[هود: ٧٨].

١٠- قد يكون الالتزام ظلا للخبر:

"سمعًا وطاعة"!

١١- قد يأتى التعجب ظلا للخبر:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾!

١٢- قد يأتى التعميم ظلا للخبر:

﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ﴾!

١٣- قد يأتى التعجب ظلا للشرط:

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥].

١٤- قد يأتى السير والتقسيم ظلا للشرط:

﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾.

١٥- قد يكون التمنى ظلا للشرط:

﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾!

١٦- قد تكون التسوية ظلا للشرط:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

١٧- قد يأتى التعجب ظلا للنداء:

﴿ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ﴾!

١٨- قد تأتى الندبة ظلا للنداء:

"يا أسفا على يوسف"!

١٩- قد يأتى الاختصاص ظلا للنداء:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة: ٥٢].

٢٠- قد يأتى التمنى ظلا للنداء:

﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ ﴾!

على الرغم من أن الشواهد التى اشتمل عليها هذا العرض مأخوذة من النص القرآنى الكريم فلا يمكن أن يكون من العسير على أحد أن يطلع عليها، أقول: على رغم ذلك لم ير السلف من العلماء ما يؤلف بينها ويجمعها تحت عنوان واحد هم

واضعوه ومستعملوه وهو "ظلال المعانى، فتناولوها مفرقة لا يجمع بينها نظام، ولكن الفكر اللغوى الجديد وفق بينها كما يبدو هنا.

هذا ما استطاع الفكر اللغوى أن يصل إليه، وهناك أنواع أخرى من الفكر الجديد تنتمى إلى حقول علمية أخرى يزخر كل منها بما أنجزه من المصطلحات والآراء والرؤى فكان لهذه الأفكار فضلها الذى لا ينكر على حقل اللغة أيضًا.

يقصد بالنقد التراثى النقد العربى ويخرج من دائرة هذا القصد ما تقرؤه اليوم من نقد يجرى على النهج التقليدى الموروث عن القدماء كالصولى والجرجانى والعسكرى وغيرهم. والمقصود بدلالات ما وراء الصياغة اللغوية ظواهر مما نعرفه من قراءتنا للمجازات التى جاء بها القدماء، وقد عبّر الصولى عن هذه الظواهر بأنها: "تحيط بها المعرفة ولا تدركها الصفة"، وشبهها بعضهم "بالرائحة العطرية التى تشم ولا تفرك"، فلقد تكلم الأقدمون عن الألفاظ ذات الجرس والحسنة التأليف كما تكلموا عن جزالة العبارة وسلاسة الأسلوب وحسن الديباجة وقوة السبك وعن الماء والرونق، وما يزال الذين يقرأون النقد المشتمل على هذه المجازات يخرجون مما قرأوا بانطباعات مجردة لا تنم عن شىء محدد، فلو طلب إليهم أن يصوغوا ما فهموا بعد القراءة فى لغة محددة المصطلحات واضحة المقاصد ما بلغوا من ذلك شيئًا على رغم ما وقر فى أنفسهم من انطباع ما دام هذا الانطباع لا تدركه الصفة.

ولقد خطر لى أن أشغل نفسى بمحاولة فهم المقصود بهذه المجازات بعد أن هيأ لنا مرّ العصور من أدوات الفهم ما لم يكن مثله ميسرًا للقدماء من السلف ولا سيما ما يستفاد اليوم من تقدم الدراسات اللغوية والأسلوبية من جهة، والدراسات النقدية والسيميولوجية من جهة أخرى، فخرجت من محاولتى هذه بفهم أرجو أن يكون على صواب فإن لم يكن فإننى أرجو له أن يفتح لغيرى باب التأمل فى هذا

الحقل من حقول تراثنا العربى النفيس، ولسوف يرى القارىء أن إيضاح بعض المجازات قد جاء شرحه بواسطة مصطلحات التراث نفسه، ولكن ربطه بهذه المصطلحات لم يكن مألوفًا لدى النقاد. أما البعض الآخر فقد حاولنا أن نفسره فى ضوء ما قدمه إلينا الدرس الحديث وفيما يلى إيضاح لهذه المفاهيم:

١ - الجرس:

فرّق اللغويون قبل أن يفرق العلماء المحدثون فى دراسة اللغة بين نوعين من الأصوات هما الأصوات المجهورة والأصوات المهموسة، وكان الفرق بينهما حضور الأثر السمعى الناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية عند نطق الأصوات المجهورة، وعدم حضور ذلك عند نطق الأصوات المهموسة. ومن الواضح أن حضور هذا الأثر السمعى هو الجرس، ومن ثم لا ينسب الجرس إلى الأصوات المهموسة، ولا شك أن الأصوات المجهورة تقع من حيث الجرس فى طبقات أعلاها الحركات والمدود، وأدناها الأصوات الشداد، فليس للباء المشكلة بالسكون مثلا قوة إسماع يعتد بها ولو أنك حاولت إطالة النطق بها لحال احتباس هواء النفس وراء الشفتين دون ذلك لعدم إمكان استمرار الإضافة إليه، ومن ثم لا يمر هواء جديد بالأوتار الصوتية، فلا يحدث جهر ولا جرس بعد ذلك، وتصبح الباء مجرد إقفال الشفتين وانحباس الهواء. وترتب طبقات الجرس فى الأصوات المجهورة هكذا:

١- الحركات والمدود (وأقوى الجرس جرس الألف والفتحة ويليه جرس الياء والواو/ الكسرة والضمة).

٢- الأصوات المتوسطة: ر ل م ن و ى (وأقواها جرسًا الواو والياء).

٣- الأصوات الرخوة: ذ ز ظ ع غ (ض كما فى النطق السعودى).

٤- الأصوات الشداد: ب ج د (ض كما فى النطق المصرى).

فإذا كانت الكلمة مكونة من حروف قوية الإسماع حسن جرسها وإلا فلا. أضف إلى ذلك أن حسن الجرس يرتبط أيضًا بحسن التأليف.

٢ - حسن التاليف:

إن حسن الجرس لا يتوقف على قوة الإسماع فقط لأن الأصوات إذا قوى إسماعها مع تقارب مخارجها دخل على جرسها القبح من مدخل آخر هو ما عرف باسم تنافر الحروف، أما إذا تباعدت المخارج فإن اللفظ يوصف بحسن التأليف. كما توصف الكلمة حين يتحقق لها الأمران بأنها "شعرية"، ولقد حاول المتأخرون من أمثال السبكى فى كتابه "عروس الأفراح" أن يضبطوا حالات حسن التأليف ضبطًا صوتيًا علميًا وجماليًا، فإذا أريد للكلمة العربية أن تكون فصيحة فى عرفهم فإنها ينبغى لمخارج حروفها أن تكون بحيث لا تتنافر الحروف، ولقد قسم السبكى مخارج الحروف العربية إلى مجموعات ثلاث سماها: المخارج القصوى (وهى مخرج الطبق وما وراءه)، والمخارج الدنيا (وهى الشفوية)، والمخارج الوسطى وهى ما بين هاتين المجموعتين (من الأسنان إلى الغار) وكان بعض الأقدمين قد رتب على ذلك "أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت"، وأنه "إذا تباعدت مخارج الحروف حسن التأليف". ويروى السيوطى عن السبكى أن ثمة اثنى عشر مكانا لتوالى المخارج تتفاوت من حيث الفصاحة وحسن التأليف، وعلى الرغم من أن رؤية السبكى لهذا الموضوع لا تصمد للتمحيص نراها ضوءًا كاشفًا للراغبين فى بحث هذه الظاهرة التى ترتبط بالذوق العربى فى صياغة المفردات أقوى ارتباط وهى ظاهرة جمالية ذوقية ما تزال تأبى أن تدركها الصفة وإن أحاطت بها المعرفة.

ومما يتصل بذلك كذلك ما نعرفه الآن باسم المناسبة الصوتية، هذه المناسبة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتقدم المخارج وتأخرها سواء كان التقدم والتأخر من صفات

للصوامت أم كان من صفات الصوائت ولهذه المناسبة جانب يخضع للتقعيد وجانب آخر يصرّفه الذوق، فأما ما ارتبط من ذلك بالتقعيد فمثاله ما نعرفه فى طرق الصياغة اللفظية باسم "طلب الخفة" أى الهرب من التقاء صوتين يأتى عن التقائهما ثقل. وهكذا عرفنا أن الياء والواو عدوتان، وأن الدال والزاى حين يلتقيان يطعن التقاؤهما فى عربية الكلمة، وكذلك الصاد والجيم، والقاف والجيم وهلم جرا، وكل قواعد التحوّل الصرفى من قبيل طلب الخفة، وأما الجانب الذوقى للمناسبة الصوتية فيبلغ أقصى مداه فى شيوع السجع فى بعض الصور. كما يمكن العثور عليه فى الاختيار الفردى للكلمات الشعرية والمؤشرات الأسلوبية الأخرى.

٣ - السلاسة:

إذا كان حسن الجرس وحسن التأليف من صفات الألفاظ المفردة فى الأصل (وإن بقى ذلك للألفاظ فى النص المتصل أيضًا) فإن السلاسة وما يليها من المصطلحات تشير إلى مفاهيم أسلوبية وإلى عناصر لغوية أكبر من اللفظ المفرد، فيقال للنص إنه سلس الأسلوب جزل العبارة حسن الديباجة قوى السبك له ماء ورونق، وفى رأيى أن المقصود بالسلاسة أساسًا إنما هو سهولة الأداء اللفظى، وذلك بخفة النص على اللسان لخلوه من التوعر والحوشية والتنافر والمعاظلة والغرابة، والأصل فى السلاسة أن تكون صفة للقياد، فيقال للحيوان إنه سلس القياد إذا لم يكن عصيًّا ولا نافرًا ولا متأبيًا، فإذا وصف الأسلوب بهذا الوصف فأولى به كذلك إلا يكون عصيا فى الأداء النطقى وألا تتنافر فيه الألفاظ وألا تتأبى فيه المعانى على قارئه أو سامعه.

٤ - الجزالة:

الجزالة صفة إيجاب سواء وصف بها القول أو التكوين والخلقة، وعكسها فى القول الرّكة وفى الخلقة الضالة والقماءة. فالجزالة قوة الكلام التى تبدو فى

التفخيم فى مقابل الترقيق، والشدة فى مقابل الرخاوة، والتشديد فى مقابل الإفراد، والطول فى مقابل القصر، والتكثير فى مقابل التقليل فمثال التفخيم ما نلاحظه عند مقارنة الفعلين فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ [سورة الشمس: ٦]. قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [سورة النازعات: ٣٠]، إذ جاء التفخيم مع القسم والترقيق مع مجرد الخبر، ومثال الشدة على مقابل الرخاوة ما نراه من فارق بين قضم وخضم، إذ جعل الأول لأكل اليابس والثانى لأكل الرطب، ومثال التشديد فى مقابل الإفراد تضعيف السين من كسَّر فى مقابل أفرادها فى كسر. ومثال الطول فى مقابل القصر فرق ما بين "مفاتح" و"مفاتيح" ومثال التكثير فى مقابل التقليل فرق ما بين قرّ واستقرّ. وينبغى أن نعلم أنه على الرغم من التمثيل بالألفاظ المفردة على نحو ما سبق لابد أن ننسب أثر ذلك إلى الألفاظ فى العبارة لا إلى اللفظ المفرد.

٥ - الديباجة:

يقال للكاتب إنه دبّج العبارة إذا جعل ألفاظها على قَدْر معانيها كالديباجة حين تكون على قَدٍّ لابسها. وحسن الديباجة فى الكلام تناسب ألفاظه ومعانيه، ويتطلب ذلك حسن اختيار الألفاظ للمعانى. فلقد يحدث أن تترادف الألفاظ فيدل عدد منها على معنى واحد ولكن هذا الترادف لن يكون تامًا وإلا لنسب العبث والإسراف إلى اللغة، ولهذا نجد المترادفات تلتقى على مجمل المعنى وتفترق فى ظلال المعنى إن صح هذا التعبير، ومن هنا جاءت كتب الفروق فى اللغة لتزيل وَهْم الترادف التام من الأفهام، فإذا اتحد عموم الدلالة واختلفت ظلالها فى مجموعة ألفاظ مترادفة كان اختيار الظل المناسب من قبيل حسن الديباجة، ولا شك أن الاختيار من قبيل الأسلوب والأسلوب مما ينسب إلى النص لا إلى اللفظ المفرد.

وثمة نوع آخر من مناسبة اللفظ للمعنى اصطلح الناس على تسميته "حكاية الصوت للمعنى" أو "الحكاية" على سبيل الاختصار. لقد نسبنا إلى الجزالة منذ قليل أنها تعنى اختيار بعض الخصائص الصوتية فى مقابل البعض الآخر، وهى بهذا المعنى تقترب كثيرًا من معنى الحكاية دون أن تبلغه، لأن الحكاية أكثر من ذلك إغراقًا فى الإيحاء، حتى إنها لتكاد تبلغ به مرحلة دلالية شبيهة بدلالة أسماء الأصوات. ففى تكرار راء الخرير أو حاء الفحيح شىء من الإيحاء إلى المفهوم بتقليد أثره فى السمع شبيه بما فى لفظ "طق" من دلالة على صوت الكسر والقصف، وفى كل لغة طائفة من الألفاظ ذات الحكاية يستعين بها الناس فى تحسين ديباجة كلامهم ولكن ظاهرة الحكاية محدودة لا تكاد تبلغ حد التقعيد والاطراد.

٦ - السبك:

السبك إحكام علاقات الأجزاء. ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجمية من جهة وقرينة الربط النحوى من جهة أخرى، واستصحاب الرتب النحوية إلا حين تدعو دواعى الاختيار الأسلوبى، ورعاية الاختصاص والافتقار فى تركيب الجمل. وفيما يلى بيان ذلك:

المقصود بالمناسبة المعجمية تلاقى حقلين من حقول المعجم فى معناهما بحيث يجوز للفظ من أحد الحقلين أن يرد فى تركيب واحد مع لفظ من الحقل الآخر وهذا هو الذى يقصده البلاغيون عند قولهم: "إسناد الفعل إلى من هو له" أما إذا لم يلتق الحقلان فإن الإسناد يكون إلى غير من هو له. وهذه المناسبة بذاتها شرط من شروط الإفادة التى يتوقف عليها الاعتراف بان سلسلة منطوقة بعينها كلام أو لغو، فإذا قال قائل: "فهم الهواء قميصه" فليس بين كلمات هذا القول مناسبة؛ لأن الفعل "فهم" يتطلب فاعلاً عاقلاً وليس الهواء كذلك (أى أن الفعل قد أسند إلى غير من هو له) وهذا الفعل نفسه يتطلب مفعولاً معقولاً غير محسوس ولكن القميص محسوس. أضف إلى ذلك أن الهواء ليس له قميص حتى يمكن أن يتعدى إليه

الفعل. هذه المفارقة المعجمية بين عناصر القول هى سبب انتفاء الإفادة. وهذا الانتقاء أقوى مطعن يمكن أن يوجه إلى "السبك".

هذه المفارقة المعجمية التى رأيناها فى التركيب السابق هى عليا درجات المفارقات لأنها لا يمكن معها تبرير التركيب بيانيًا، وإن أمكن إعرابه نحويًا، إذ يمكن أن يقال: فهم فعل ماض والهواء فاعل إلخ، ولكن هناك درجة من المفارقات دون ذلك تخضع للتبرير فينتهى الأمر إلى قبول الجملة بقدر من التأويل البيانى.

ويمكن شرح هذا التأويل كما يلى: المعروف أن المعنى علاقة عرفية تربط الدال بالمدلول وهذا الطابع العرفى للعلاقة شرط لوصف المعنى بأنه لغوى. ومعنى أن العلاقة عرفية أنها موضع اتفاق بين أعضاء المجتمع، وأن العنصر اللغوى لا يستحق هذا الوصف إلا إذا تعارف الناس على الربط بينه وبين مدلول معين، وقد يحدث مع بعض المفارقات المعجمية أن يعمد المتكلم إلى استبدال علاقة فنية بالعلاقة العرفية بين الدال والمدلول. هذه العلاقة الفنية لابد لها من قرينة تدل على قصدها وعلى الترخص فى العلاقة العرفية. وهكذا يمكن للمجاز أن ينقذ الجملة من أن تنسب إلى الإحالة وعدم الفائدة، ففى قولنا: "بكت السماء" اسناد الفعل إلى غير من هو له، لأن السماء لا تبكى. ولقد كان ذلك يكفى لوصم الجملة بالإحالة وعدم الفائدة، غير أن التبرير البيانى يأتى لإنقاذ الجملة، فينشىء علاقة فنية هى المشابهة بين نزول المطر والبكاء (أى نزول الدمع) ويجعل لفظ السماء قرينة على إرادة التشبيه من حيث إن السماء ليس من طبعها البكاء، وهكذا يقوى سبك الجملة على رغم المفارقة المعجمية.

وتتوقف قوة السبك كذلك على حسن استخدام قرينة الربط وهى تكون بإعادة الضمير إلى مرجع ما وبالإشارة وبالموصول وبأل وبالوصف وبالتكرار، فإذا قلت: "هذا هو الرجل الذى تمزق قميص، فليس بين أجزاء الجملة من سبك إلا أن

نضيف القميص إلى ضمير الرجل فتقول: "تمزق قميصه". ويمكن الربط بالإشارة إذ توضع الإشارة موضع ضمير الفصل الذى لا محل له من الإعراب فيصبح قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ فى قوة قول القائل "ولباس التقوى هو خير". وكذلك يكون الربط بالموصولات بأنواعها فيكون الموصول صالحًا أن يحل محله الضمير، نحو ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣] أى لنهلكنهم وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠] أى أجرهم وقوله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] أى ولكنهم وقوله: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٢٢] أى لهم. وقد يكون الربط بأل نحو: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ ، ٤١] أى مأواه. وقد يكون بالتكرار نحو: ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨] إذ تكرر لفظ الجلالة وموضع التكرار صالح للضمير. وقد يكون الربط بالوصف نحو: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢]، أى فقاتلوهم، فالربط بأى من هذه الطرق وسيلة لقوة السبك إذ يأخذ بعض الكلام بحجز بعض، كما يقول عبد القاهر فى دلائل الإعجاز وبدونه تضعف الرابطة بين أجزاء الكلام.

والمعروف أن الرتبة بين عناصر التركيب العربى من نوعين: أحدهما الرتبة المحفوظة والثانى الرتبة غير المحفوظة، أما الرتبة المحفوظة ففى إهدار حفظها إهدار لقوة السبك فلا وجه لتقديم الصلة على الموصول ولا المجرور على الجار ولا التابع على المتبوع وهلم جرا. ولو قد حدث ذلك لخرج الكلام من حظيرة الاستعمال العربى وأصبح لغوًا نائيًا عن الإفادة وعن أصول التركيب العربى

النحوى كليهما. أما فى نطاق الرتبة غير المحفوظة فإن الأمر يخضع للاختيار الأسلوبى. ولما يعلقه المتكلم من ظلال المعانى على التقديم والتأخير، ومعنى هذا أن الرتبة غير المحفوظة قد تخضع لاختيار المتكلم من حيث حفظها وعدمه ثم يبقى السبك قويًا فى كلتا الحالتين. وآية ذلك ما نجده من قوة السبك فى قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٦] إذ تقدم المفعول لأجله على المفعول به وصفته وتقدم جميع ذلك على الفعل والفاعل.

وتتوقف قوة السبك على رعاية صورة التضامّ بين الكلمات، إذ قد تفتقر الكلمة إلى أختها بحسب الأصل كافتقار الجار إلى المجرور، أو بحسب التركيب، كافتقار المضاف إلى المضاف إليه. وقد تختص الكلمة بمدخول معين كاختصاص "لا" النافية للجنس بالنكرة، واختصاص كاد بالمضارع فى خبرها واختصاص "إذ" الظرفية بالدخول على الفعل. ومن ذلك ضرورة الذكر إذا لم يقم دليل على المحذوف وعدم دخول الحرف على الحرف، وعدم وصف الضمير أو جعله مضافًا، وعدم الفصل بالأجنبى بين المتلازمين، وغير ذلك من أصل التركيب العربى، فلو أن متكلما ترخص فى أصل من هذه الأصول لصادف إنكارًا أو أصاب لبسا أو أهدر معنى، ولكن من حقنا أن نتهم قوله بضعف السبك.

٧ - الماء والرونق:

كثيرًا ما نصف الكلام بالجفاف وبخاصة النصوص العلمية الخالصة. وكثيرًا ما وُصف النحو بهذا الجفاف، لأن نصوصه لا تبعث فى النفس شوقًا إليها ولا استمتاعًا بها. والمعروف أن الجفاف قلة الماء أو عدمه، ومن هنا صح أن يوصف النص الذى يبعث فى النفس استمتاعًا به عند القراءة وشوقًا إليه بعدها بأن له ماء ورونقًا، ولكن الأمر لا ينبغى أن ينتهى بهذا الشرح المجمل الذى يبرر كلمة من خلال استعمال ضدها، فمن المعروف أن للكلام فيما وراء صياغته اللغوية صورًا من الإيقاع توصف أحيانًا بالرشاقة والخفة، وأحيانًا أخرى بالثقل والكزازة، وإنك

لتقرأ لكاتب فى موضوع يراه الناس مشوقًا فيصدك إيقاع كلامه عن القراءة، وتقرأ لكاتب آخر فى تبسيط العلوم (وقد ذكرنا أن النصوص العلمية توصف بالجفاف) فيجذبك إيقاع كلمه إليه، فتلقى إليه قياد نفسك ومجمل حسك، فلا يصرفك غنه إلا انتهاؤك من قراءته. فما المقصود بهذا "الإيقاع" وما بواعثه؟ هذا ما تجيب عنه الأسطر الآتية إن شاء الله.

المدخل إلى الكلام عن ظاهرة الإيقاع إنما يكون بواسطة الكلام فى المقاطع العربية. وينبغى أن نشير منذ البداية إلى أن الإيقاع أعم من الوزن، إذ يمكن أن يتصف الكلام بالإيقاع دون أن يكون موزونًا وزن الشعر. وحسبنا فى شرح المقاطع أن نضع قاعدة تعرف بها بداية المقطع ونهايته والمعروف أن سنام المقطع هو الحركة أو المد ولكن تيسير الشرح ربما رخص لنا أن نقول:

* كل متحرك فهو بداية لمقطع (لاحظ أن لفظ متحرك = سابق لحركة أو مد.. وهكذا نحصل فى اللغة العربية على المقاطع التالية (ص = حرف صحيح، ح = حركة، م = مد):

١- ص ح

٢- ص ح ص

٣- ص م

٤- ص م ص

٥- ص ح ص ص

والمقاطع الثلاثة الأولى هى مقاطع السياق المتصل أما الأخيران فهما لا يكونان إلا عند الوقف أو اغتفار التقاء الساكنين. مثل المقطع الأول ما نجده فى "كتب" مبنيًا على الفتح، ومثال الثانى "لم يكتب" ومثال الثالث "ما فيها"، والرابع "قال"، وكذلك أول مقاطع "دابّة" والخامس "قبل" وثانى مقاطع "دويبّة". ويمكن دراسة النبر فى اللغة العربية بإحدى وجهتى نظر: أولاهما فى

الإفراد، والثانية فى السياق المتصل. والنبر الافرادى نبر الصيغة الصرفية والسياقى نبر الإيقاع، ولكل من نوعى النبر عدد محدود من القواعد المطردة التى يمكن أن تنضبط بها أجراس المقاطع علوًا وانخفاضًا. ذلك أن النبر إنما هو وضوح فى السمع لبعض مقاطع الكلمة أو السياق أكثر مما يكون من الإسماع فى المقاطع الأخرى: أرأيت إلى من يقوم خطيبًا فيضرب بجمع يده على المنضدة التى أمامه؟ إنه لا يفعل ذلك إلا عند نطق المقاطع التى يقع عليها النبر، ويقع النبر فى لفظ "جدة" على كسر الجيم، وفى "النادى" على الألف التى بعد النون، وفى "الثقافى" على الألف التى بعد القاف. ولا أجد متسعًا من مساحة هذه الأوراق لتفصيل القول فى قواعد النبر، فمن شاء فليرجع إلى كتاب "اللغة العربية ـ معناها ومبناها" لصاحب البحث.

ولقد يضطر المرء أحيانًا إلى الكلام عن نبر أولى وآخر ثانوى. فإذا طالت الكلمة العربية فأصبحت بوزن كلمتين قصيرتين ألقى عليها نبران آخرهما أوّلى قوى، وأولهما ثانوى أضعف إسماعًا من صاحبه، فإذا نظرنا إلى كلمة مثل "مستقيم" وجدناها تساوى من حيث مطلق الحركات والسكنات كلمتين مثل "خير حال" إذ يقع نبر على فتحة الخاء فى "خير"، ونبر آخر على الألف فى "حال". وهكذا تعتمد كلمة مستقيم على قوة الإسماع فى موضعين منها: أولهما ضمة الميم وثانيهما ياء المد. وثانيهما أوضح من أولهما.

وإذا نظرنا إلى السياق المتصل العربى وجدنا نوعى النبر المذكورين يقعان دون نظر إلى حدود الكلمات. وسبب ذلك أن السياق يدخل على الكلمات من اللواصق وحروف المعانى والأدوات ما قد يكون فى صورته على حرف واحد، فيبدو كأنه جزء من بنية الكلمة تتغير به البنية، فيدعو إلى تغيير موقع النبر فيها، والمسافات بين نبر فى السياق ونبر آخر هى الأساس الذى يقوم عليه الإيقاع، هذه المسافات قد تتساوى تساويًا دقيقًا (وهذا نادر) فيبدو إيقاعها قويًا أقرب ما يكون إلى طبيعة

الوزن نحو "من تأنى نال ما تمنى" إذ يقع النبر على مقطع ويترك مقطعًا بانتظام هكذا (ويتمثل النبر فى الخط الذى تحت المقطع):

من ت أن نا نا ل ما ت من نا

ولكن المسافة بين النبرين فى الحالات الأخرى قد تكون بطول مقطع واحد، وقد تصل إلى ثلاثة مقاطع كما نرى فى قوله تعالى: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ إذ تبدو على الصورة التالية:

لي ل تل قد ر خي رن من ال ف شهر

فبين النبر الأول والثانى مقطعان لم يقع عليهما نبر، وبين الثانى والثالث واحد، وبين الثالث والرابع اثنان، وبين الرابع والخامس واحد. ولا يطعن اختلاف المسافات فى الإيقاع كما أن الزحافات والعلل لا تطعن فى وزن الشعر.

هذا عامل من عوامل الإيقاع أما العامل الآخر فهو قصر الجمل وتواليها متساوية الأبعاد مترابطة المعانى من خلال التبعية أو التفسير أو الجواب أو نوع آخر مما أشرنا إليه تحت الكلام عن السبك، فعندئذ يجد السامع فى السياق من الإيقاع ما يعين على خلق الأثر الوجدانى فى النفس، كالذى نجده فى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ وهذا النوع من إيقاع الجمل يقف بالكلام فى منتصف الطريق بين النثر البسيط وبين الشعر.

لقد كنا نتكلم عن الماء والرونق، ولقد قلنا إن الماء يذهب بالجفاف ويضفى على الأشياء الرونق، أى أنه حيثما وجد الماء كان الرونق، ومن هنا أطرد الربط بينهما بحرف العطف فى النقد التراثى فقيل للنص إنه "له ماء ورونق" فما الماء المقصود؟ الذى يبدو لى أن الماء هنا مجاز عن الإيقاع، سواء كان هذا الإيقاع من خلال

مسافات النبر، أم من أطوال الجمل. وهكذا يمكن أن نفسر من الظواهر التى وراء الصياغة اللغوية للنص ما عرفه القدماء من خلال الانطباع، ولكنهم لم يستطيعوا تحليله ووصفه، فكان بالنسبة إليهم كما قال الموصلى: "تحيط به المعرفة ولا تدركه الصفة".

والله ولى التوفيق،،

النقد الأدبى عند العرب	مندور
عروس الأفراح	السبكى
المزهر	السيوطى
اللغة العربية ـ معناها ومبناها	تمام حسان
دلائل الإعجاز	عبد القاهر

المداخلات على بحث الدكتور تمام حسان

الدكتور حامد الشنبرى.. وفى الجرس مثلاً نجده تحدث عن أن طبقات الصوت تحدد الجرس فى الكلمة وكذلك مدى تدخل هذا الجرس فى حسن التأليف، بحيث يصبح تقارب المخارج فى أحرف الكلمة الواحدة سببًا فى صعوبتها وتباعد المخرج يؤدى إلى سلالة الكلمة وسلامة النص.

بعد ذلك أقول إننى أتمنى لو أن الدكتور تمام حسان تعرض لمصطلح "الوضع والاستعمال وأثره فى الديباجة وحسن الكلام" وذلك أننا نعرف أن الكلمة توضع لمعنى وتستعمل داخل النص لمعنى آخر.

الدكتور تمام حسان: أخى وصديقى الدكتور لطفى عبد البديع يعترض بفكرة الآيات الملبسة وأنا أعترف بأن "آلم" و"آلمر" متشابهة وملبسة ولا أحد يعرف ما المقصود بها تمامًا ولذلك فإن الردّ الطبيعى عند السؤال عنها هو "الله يعلم بمراده من ذلك" ولكن كلما جاءت آية قرآنية فيها تركيب نحوى يكون عرضة للبس فإن القرآن يأتى بعد ذلك لتحديد معنى معين يوضح موضع اللبس، ولكن القضية هى أننا قد نختلف فى هذه القرينة التى عثرت عليها، ومن هنا فإننا لو أخذنا كل الآيات التى قال عنها النحويون بأن فيها أعرابين، (وفيها أعرابان معناه فيها لبس لأن الإعراب صنو المعنى) فإننا نجد أن أحد هذين الإعرابين أو الاحتمالات عليه دليل فى موضع آخر من النص القرآنى.

وقد اعترض الدكتور لطفى بالإحالة وقال إنها عدم مطابقة الكلام للواقع، ولكن الإحالة تأتى أحيانًا حينما تقول كلامًا لا معنى له كأن تقول مثلاً: حلكف الجعبور بقعاصة الفيفانه، وهو كلام تستطيع أن تعربه فتقول حلكف فعل ماض والجعبور فاعل وهكذا ولكن يظل لا معنى لهذا الكلام. وهذا يعنى أنه يحمل مستوى من الدلالة.

وربما تستطيع أن تجعل لهذه الكلمات عنصرها المعجمى ولكنه لا معنى له عند التركيب.

فإذا ارتقينا بعد ذلك إلى جملة يمكن أن يقترح لها أحد معنيين فهذا هو اللبس، وعلى هذا الأساس فإن اللبس يأتى إما نتيجة لفقد العنصر المعجمى أو للانحراف بهذا العنصر المعجمى كأن تأتى بكلمتين لا تلتقيان فتؤدى إلى الدلالة المقفلة التى لا يمكن حلها.

ولكننا فى القرآن الكريم لا يمكن أن نجد آية ملبسة أو فيها لبس إلا ووجدنا القرآن الكريم يأتى بحلها فى آية أخرى ويوضح معناها ويزيل اللبس الكامن فيها والأمثلة على ذلك كثيرة.

أما الدكتور شكرى فيقول: إن المحدثين يتعمدون الإحالة وهذا ما أردت أن أقوله حينما قلت إن الإحالة هى أن تأتى بكلمتين ليس بينهما رابطة معجمية.

والأخ الدكتور كمال أبو ديب يقول إنه لم يدرك موقف القدماء من هذه المصطلحات وأنا كنت أتمنى لو أنه قرأ هذا البحث قبل أن ألقيه ولكنه لم يفعل، وقد نصحنى أن أشير إلى أمسبون، والواقع أن هناك كثيرين تعرضوا لهذه المسائل ولكنى أحببت أن أجعل البحث عربيًّا.

ويتساءل الدكتور كمال: كيف يكون اللبس موجودًا وملغى فى نفس الوقت؟ وأقول إنه وجد بالتركيب وألغته القرينة.

ويقول الدكتور كمال: قد أقول غدًا إن تأويل تمام يحتاج إلى وضع جديد وأقول: لا مشاحة فى هذا ولكنك تحتاج فى ذلك إلى قرينة.

أما استعمالنا لكلمة "فاصلة" فإننا نقول إنها أصبحت مصطلحًا فنيًّا يختلف عن السجعة والقافية ولم يعد معناها دينيًّا فحسب.

والأخ الدكتور الطرابلسى يقول: إن سبب الغموض ربما كان العلاقة الاعتباطية، ولكنى لا أرى ذلك لأن السبب هو أن اللغة متناهية والأفكار لا متناهية، فوسائل اللغة وأدواتها محدودة بينما وظائفها لا محدودة ولذلك يأتى اللبس.. فاللبس سببه ضيق اللغة.

وطلب الدكتور الشنبرى أن يكون هناك بيان لمصطلح الوضع والاستعمال، وهذا المصطلح ملبس ومبهم فهناك وضع للكلمة ووضع للجملة وهى معانى متعددة ونحن قد تجنبنا هذه المعانى الملبسة..

مداخلة من الدكتور حمادى صمود: أو أن أسأل الدكتور تمام حسان، فهو قال إن المعانى تفوق الكلمات وهى مقولة قديمة من الجاحظ، وسؤالى هو كيف نعرف هذه المعانى خارج اللغة أى كيف نعرفها ونحن لا نعبّر عنها؟

د. تمام حسان: أنت لديك كلمات مثل مفاتيح الكمبيوتر تستدعى بها هذه الكلمة أو تلك، ففى يدك الكلمات وفى رأسك الكلمات.

د. محمد برادة: جوهر السؤال هو كيف تدلّل على أن المعانى أكثر من اللغة، وهى قضية تتعلّق بجوهر الشعر، ذلك أن اللغة واسعة وهى تحاول أن تكسّر محدودية اللغة؟

د. تمام حسان: أنت تحاول أحيانًا معنى ويستعصى عليك فتعترف أنك لا تعرف كيف تعبّر عنه ولذلك فالمعانى أوسع من اللغة.

دكتور حمادى صمود: يا دكتور.. الجاحظ قبل ألف سنة تحرج من القطع فى هذه المسألة وقال: إن المعانى قبل أن تحيط بها اللغة موجود فى هيئة معدوم.. ولم يجرؤ أن يقطع بهذا..